
فجر الرياض

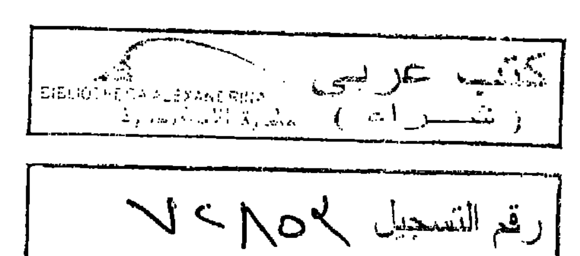
ⓒ دارة الملك عبدالعزيز ، ١٤١٩هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

راغب، عبدالواحد محمد
فجر الرياض: دراسة تاريخية. — الرياض.
١٧٠ص ؛ ١٧×٢٤سم.
ردمك:٩-١٣-٦٩٣-٩٩٦٠

١-السعودية-تاريخ - الملك عبدالعزيز ٢-الرياض- تاريخ
٣- عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود، ملك السعودية أ-العنوان.
ديوي ٩٥٣,١٠٥ ١٩/١٣٥٥

رقم الإيداع: ١٩/١٣٥٥
ردمك: ٩-١٣-٦٩٣-٩٩٦٠







فجر الرياض

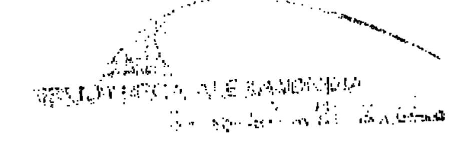
(دراسة تاريخية)

تأليف

عبدالواحد محمد راغب

صدر بمناسبة مرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية

(١٤١٩هـ - ١٩٩٩م)



بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسول الله ، أما بعد :

فإن الإسلام أكبر نعمة أنعمها الله على الأمة، واستحضار هذه الحقيقة في كل عمل مخلص هو قمة الوعي بها ، ومن ثم الدفاع عن مقوماتها . ولقد أدرك الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل آل سعود - رحمه الله - عظمة هذه النعمة الإلهية، وعمل على تمثلها في نفسه ، فجعل الإسلام نبراساً له في كل أعماله، وحقق أهدافه السامية المتمثلة في التمسك بالعقيدة وتطبيق الشريعة الإسلامية والدفاع عنها ونشر الأمن، وتأسيس مجتمع مُوحَّد يسوده الرخاء والاستقرار .

ولقد كان استرداد الملك عبدالعزيز الرياض في الخامس من شهر شوال عام ١٣١٩هـ/١٩٠٢م هو اللبنة الأولى في تأسيس المملكة العربية السعودية، في حين تعود جذور هذا التأسيس من مائتين واثنين وستين عاما ، عندما تم اللقاء التاريخي بين الإمام محمد بن سعود والشيخ محمد بن عبدالوهاب-رحمهما الله-عام ١١٥٧هـ/١٧٤٤م، فقامت بذلك الدولة السعودية الأولى على أساس الالتزام بمبادئ العقيدة الإسلامية، ثم جاءت الدولة السعودية الثانية التي سارت على الأسس والمبادئ ذاتها.

وعندما بدأ الملك عبدالعزيز في مشروع البناء الحضاري لدولة قوية الأركان، كان يضع نصب عينيه السير على منهج آبائه، فأسس دولة حديثة قوية، استطاعت أن تنشر الأمن في أرجائها المترامية الأطراف، وأن تحفظ حقوق الرعية، بفضل التمسك بكتاب الله - عز وجل - وبسنة رسوله - صلى الله عليه وسلم -. وامتد عطاؤها إلى معظم أرجاء العالمين العربي والإسلامي، وكان لها أثر بارز في السياسة الدولية بوجه عام ، بسبب مواقفها العادلة والثابتة، وسعيها إلى السلام العالمي المبني على تحقيق العدل بين شعوب العالم .

وجاءت عهود بنيه من بعده : سعود وفيصل وخالد - رحمهم الله -، وخادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز - يحفظه الله - امتدادا لذلك المنهج القويم.

وفي الخامس من شهر شوال عام ١٤١٩هـ / ٢٣ يناير ١٩٩٩م يشهد التاريخ مرور مائة عام على دخول الملك عبدالعزيز - رحمه الله - الرياض، وانطلاق تأسيس المملكة العربية السعودية، عبر جهود متواصلة من الكفاح والبناء، نقلت هذا الوطن وأبناءه من حال إلى حال . وصنعت بتوفيق - الله تعالى - وحدة حقيقية على أساس الإسلام، ملأت القلوب إيماناً وولاءً، وجسدت معاني التلاحم التاريخي بين الشعب وقيادته في مسيرة تاريخية .

إن استحضار أحداث ذلك اليوم في نفوس أبناء المملكة عونٌ على شكر الله على نعمه، وتذكير بأن هذه البلاد - التي قامت فيها الدعوة والدولة معاً - لا تزال وفية لعهد أجيال التأسيس والتوحيد، مستمدة منهجها في الحياة من كتاب الله وسنة نبيه

ومن أجل رصد الجهود المباركة التي قام بها المؤسس - رحمه الله- وأبناؤه من بعده ؛ عرفاناً بفضلهم ووفاء لحقهم ؛ وإيضاحاً لمنهجهم القويم فقد قامت دارة الملك عبدالعزيز بإعداد العديد من الدراسات والإصدارات التي تتناول بعض تلك الجهود في منجزات علمية موثقة لتدلل بذلك على ما أسبغه الله - عز وجل - على هذه البلاد وأهلها، من تقدم علمي ، ومن نهضة زاهرة . وهذا الكتاب ما هو إلا جزء من سلسلة " مكتبة الدارة المئوية" التي تقوم دارة الملك عبدالعزيز بإصدارها بمناسبة مرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية، وهي سلسلة علمية تهدف إلى خدمة تاريخ هذه البلاد ومصادره المتعددة .

وفي الختام أسأل الله القدير أن يديم علينا نعمه ، وأن يوزعنا شكرها ، والحمد لله الذي بفضله تتم الصالحات، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

سلمان بن عبدالعزيز

رئيس مجلس إدارة دارة الملك عبدالعزيز

مُقَدّمَة

القيادة أو الريادة موهبة، وعطاء من الله يفيض به على من يشاء من عباده، وهي مراتب، أعلاها أن تكون نعمة.. نعمة على الراعي والرعية، إذا ألزم الراعي نفسه بأسس القيادة، وعناصر نجاحها، وهي: الإيمان بالله، والثقة به، والصدق، والوفاء، والرحمة والحزم، وحصافة الرأي. وجعل ميزان حكمه العدل، والإنصاف، والقسطاس المستقيم.. كما جاء في كتاب الله، وسنة نبيه ﷺ ، عندئذ أمن وأمنت رعيته، وطابت نفسه.. فطابت رعيته.. وهنىء لهنائها.. لأنه ألزم نفسه بالإطار السليم للقيادة الحقة، التي وردت في قول الرسول ﷺ: كلكم راع، وكلكم مسئول عن رعيته.. وقوله عليه السلام« إن الرائد لا يكذب أهله ..

وقديما قيل: إذا كسا الراعي رعيته بحسن رعايته، وجميل نعمته، ملك القلوب والجوارح معا.. فلقد جبلت النفوس على حب من أحسن إليها.. قال الشاعر:

أحسن الى الناس تستعبد قلوبهم   فطالما استعبد الإنسان إحسان

فما موقع عبد العزيز من هذه القيادة، ومن مراتبها؟؟

إن صفحات التاريخ تقول: ما صار هذا الرجل إلى ما صار إليه من الذروة إلا عن حق.. وما توهج نجمه وتلألأ إلا عن جدارة.. وما نال ما ناله من مراتب العلا إلا عن استحقاق.. وما استحوذ على إعجاب الكثيرين من ذوي الرأي والفكر والسياسة إلا عن صواب.

صفحات التاريخ تقول:

- كان محاربا بارعا، ذا شجاعة نادرة، يجول بلا تهور، ويصول بتعقل، ذا أناة عند المقدرة، وسطوة عند المغالبة.

- على هذه الأرض صنع من الأجزاء كلا.. ومن التفرق وحدة.. ومن التشاحن والتنافر محبة وأخوة.. ولم يهدأ له بال إلا يوم أن بدل الخوف أمنا وسلاما يرفرف على ربوع الكيان الذي صنعه.

- غالبته الصحراء فغلبها.. وحولها إلى مزارع يانعة.. تؤتي أكلها كل حين، وصارعته البداوة فتغلب عليها.. واستبدل ترحالها استقرارا.. وتشاحنها محبة وأخوة في الله.. بما لم يسبق له مثيل في تاريخ البداوة.. منذ زمن بعيد.

- كان سياسيا حصيف الرأي، أدار دفة البلاد بحكمة الربان الماهر، في بحر لجي.. فابتعد ببلاده عن خضم السياسات العالمية، وتياراتها العاتية، ولم يقع في حبائلها.. كما وقع فيها العديدون من معاصريه، ممن كانوا يظنون بأنفسهم كل الظن.. وتنتفخ أوداجهم تباهيا وفخرا.

- تكالبت عليه - في وقت من الأوقات - الخصومات والعداوات من كل جانب.. حتى أشفق عليه الأصدقاء والمحبون.. الأقارب منهم والأباعد.. فإذا به فارس في حلبة الصراع، لا يشق له غبار.. وإذا الخصوم صرعى.. وإذا هو شامخ الرأس، يلهج بحمد الله وشكره، ويقول: اللهم من بقى منهم فاهده إلى رشده، وإلى صراطك المستقيم.

- سبق حلمه غضبه.. وارتفع بخصوماته عن الأحقاد والدنايا.. فتحول بذلك الخصوم إلى أصدقاء.. ثم زاد عطفه، وأسبغ عليهم جناح الأمن والأمان

فملك قلوبهم وسيوفهم معا، وأصبحوا سواعده في التشييد والبناء.. فسبحان من يغير ولا يتغير.. سبحانه يؤتي الحكمة لمن يشاء من عباده.

- عرف التواضع، وما تواضع عبد إلا زاده الله رفعة.. وما عفا إلا ازداد عزا، وما تواضع حاكم في ولايته إلا كبر عليها.. وما تكبر فيها إلا كبرت عليه.. كما قيل ذلك قديما.. وهو قد ارتدى ثوب التواضع في شمم.. ولم تغره مظاهر الملك والجاه والسلطان.. وما يقتضيه من أبهة وعظمة.. فكان من طراز مختلف ونوعية جديدة وفريدة لم تعهد في حكام عصره.

هذه الجوانب قليل من كثير، يجمعها تاريخه الحافل بالحوادث، والمصاعب والمشاق.. والتي قارنت مولده.. بل سبقته.. ثم بعد ذلك لازمته منذ أن فارق الرياض، برفقة والده، وإخوته، وبعض أهله.. فارقها ولوعة الأسى والألم تعتصر القلوب.. ووقعها أشد على قلب الوالد.. ذلك الشيخ الوقور.. ثم انتهى ذلك الفراق بما أزال الهموم، والمصاعب، والمشاق.. وبدله بما أثلج الصدر، وفاض عليه بردا وسلاما، وبما سر خاطر الشيخ الوقور.. وكأن الله أراد لهذا الشيخ ألا يعيش البقية الباقية إلا راضيا مرضيا[1].. بما شاهده من ملك يعود، بعد أن سلب، وعز عليه - في وقت من الأوقات - أن يجد من يساعده على رد المسلوب. فرحل بأبنائه وأهله إلى البادية.. لعل في نقاء هوائها ما يزيح لوعة الأسى والألم الذي لم يفارق قلبه إلا يوم أن استرد ابنه عبد العزيز، مدينة الرياض.. فأقبل إليه على جناح السرعة.. يلهج فؤاده وقلبه حمدا وشكرا لله.. وتاريخ الشيخ الوقور يحتاج لدراسة أخرى.

أما هذه العبقرية الفذة، فإن الجوانب العديدة لشخصيته، هي التي لفتت

---

(١) توفي الإمام عبد الرحمن الفيصل آل سعود، يوم الجمعة ١٢ ذي الحجة سنة ١٣٤٦هـ، الموافق ٣ يونيو ١٩٢٨م، في مدينة الرياض، ودفن بها.

أنظار الكتاب والسياسيين، والرحالة - وبالذات الغربيين - لأن يتجشموا المشاق، ويلاقوا المتاعب، في أرض لم تكن بها من المغريات ما يفتح شهيتهم لتحمل ما تحملوه، لكن هناك من البشر من سخروا أنفسهم لخدمة أهداف معينة.. قد تعترضهم المهالك، لكنها لا تحول بينهم وبين الوصول لأهدافهم.. وهؤلاء سمعوا عن عبد العزيز فأقبلوا للتعرف عليه، على مقربة، وكتبوا ما شاهدوه، كتبوا عنه بما لم يكتبوا عن أي شخصية عربية معاصرة له.. مدحا وثناء.. كتبوا عنه في وقت مبكر.. في الوقت الذي لم يكن لدينا الحس التاريخي على مستوى وعي عبد العزيز، ونضوجه المبكر.. فلم نسجل أعماله لحظة بلحظة..ويوما بيوم.. وندون ما دق من أعماله وما كبر.. وما جل منها وما صغر.. منذ اللحظة الأولى.. والفجر الأول الذي أشرقت شمسه حتى استوى البنيان شامخا.. وعذرنا أن نضوجه كان مبكرا، فلم نلاحقه في نضوجه. وثانيا: إنه كان يكره الإعلام وأبواق الدعاية لأعماله.. وحتى بعد أن استقرت الأمور بتوحيد المملكة[٢] لم يكن ينشر في الجرائد المحدودة وقتها، إلا المراسيم والتعليمات، وبعض الأخبار اليسيرة.. الحكومية.. لكن قل لي بربك: لو أن رجلا مثله وجد في إحدى دول الغرب.. مثلا.. فماذا كانوا يصنعون له؟.. لا شك أنهم كانوا سيصنعون منه أسطورة.. يتحدث بها أهل الشرق والغرب.

وأيا كان فما يعوض ما فات.. هو أننا أقدر على كتابة تاريخنا.. وفهم ظروفنا.. وأجدر على ارتياد الدروب في طبيعتنا.. وأنماط حياتنا.. لإبراز الصورة الحقيقية لمجتمعنا في مراحل نموه، وازدهاره، من خلال العرض

---

(٢) أصدر الملك عبد العزيز، من قصر الحكم بالرياض، مرسوما برقم ٢٧١٦ وتاريخ ١٧ جمادي الأولى ١٣٥١هـ بتوحيد المملكة العربية السعودية، على أن يتم الإعلان عن هذا التوحيد رسميا يوم ٢١ جمادي الأولى ١٣٥١هـ/الموافق ٢١ سبتمبر ١٩٣٢م، والموافق أيضا اليوم الأول من شهر الميزان.

الوافي والدقيق لتاريخ الملك عبد العزيز، بكل جوانبه، وفي مختلف المراحل، كسجل عام وشامل لكل ذلك.

هما واحد.. تاريخ الملك.. وتاريخ المملكة.. وجدت بوجوده.. على يديه تأسست وأصبحت كيانا شاسعا.. فارتقى بسبب ذلك كله إلى الذروة فتاريخه تاريخ لها.

وهذا العمل الذي نقدمه ليس سردا لتاريخ عبد العزيز، بقدر ما هو دراسة وتحليل، وفحص وتمحيص، وتقص لكل جزئية من الأخبار، والوقائع، والحوادث لفترة الإعداد والاستعداد، ووضع أول لبنة في هذا الصرح الشامخ ومن خلال التركيز على تلك الجزئيات، بالدراسة المتأملة للظروف المحيطة بها من كل الجوانب، نصل إلى نتائج قد يجد فيها العقل السليم من الصواب والاستحسان والقبول الشيء الكثير.. وقد تعطينا أحيانا مفاهيم مغايرة لما هو سائد وشائع بين عامة الناس.. غير أن ذلك لا ينبغي أن يكون مثارا للمشاعر والأحاسيس لمن تخالفه الرأي.. فالحقيقة ينشدها الجميع، وقد نصيب أو نخطىء طريق الوصول إليها لأننا بشر.. كما أن ترديد بعض المواقف في مواطن الاستشهاد بها من مقتضيات الدراسة أحيانا.. وكذا الإفاضة في السرد والتحليل.. لعل في هذا عذرا.. نقدمه مسبقا لمن يلوم.

وإذا كانت هذه الدراسة قاصرة على فترة التهيؤ والاستعداد، ووضع أول لبنة في الأساس الشامخ، فهي تعطينا ملامح واضحة لهذه العبقرية الفذة، في وقت مبكر، كانت على موعد مع فجر أول يوم لاسترداد الرياض.. ثم أشرقت شمسه على الوجود، فأرغمت الأنظار على الالتفات إليه، والتاريخ على التسجيل.

وأنت يا مدينة الرياض.. يادرة الصحراء، وعروسها التي تجلت في أبهى صورها يوم عرسها.. ما أجملك، وأنت تفوحين عبق العز والمجد التالد، وتتزينين برونق الحضارة والتحديث، وتزدهين في موكب التحضر، تتباهين على غيرك.. وعلى صدرك البض عشرة عقود من الزمن مضت منذ ذلك الفجر الأول، ولقائك المشهود مع صقر الصحراء، وفارس فرسانها، ماذا كنت يومها؟!.. ومن ذا الذي رعاك حتى أبهجك وأبهاك؟!.. إن ما صرت إليه فيه دلالة أكيدة على حسن الرعاية، وأمانة اليد التي تولتك بالعناية والنمو والتشييد، الذي فاق تقديرات المخططين وخبراء العمران والتشييد.. ولم تكن هذه الرعاية من حظك وحدك، فكل المدن نالت حظها.. وليس هذا إلا من قبيل التذكير والتحدث بنعمة الله، حرصا على المزيد من شكره سبحانه وتعالى، في كل وقت وحين.

نسأل الله أن يلهمنا الصواب، ويهيىء لنا من أمرنا رشدا.

المؤلف

الفَصْلُ الأَوَّل

الوضْع السِّياسي الدَّولي
الوضْع السِّياسي المَحلّيّ

الوضع السياسي الدولي

من المفيد أن نتحسس[٣] مجريات الأوضاع السياسية على المستويين الدولي والمحليّ، كي نلم بالحالة التي كانت عليها شبه الجزيرة العربية، وبالأخص منطقة نجد وما حولها، لتلمُّس بعض العوامل التي أثرت في صقل موهبة عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود، ونمو قدراته وتوجهاته وحسّه الواعي لمجريات الأحداث بما هيأه إلى حد ما، بالإضافة إلى عوامل أخرى ساعدت على تحقيق طموحاته الضخمة إلى الدرجة التي قصرت عنها همة غيره من معاصريه.

تفتحت عينا عبد العزيز على الدنيا، في الوقت الذي كان فيه العالم العربي والإسلامي، يموج بالصراعات الدولية والمحلية، حيث أصيب من زمن بعيد بحركة التفاف حوله من بعض الدول الأوروبية قادها البرتغاليون، عن طريق رأس الرجاء الصالح[٤] وتبعهم الهولنديون والإنجليز، منذ القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) وترسخت أقدامهم بالمنطقة، بغرض الاستعمار، ونازعتهم دول أوروبية أخرى، ثم تنافسوا فيما بينهم أخيراً على

---

(٣) التّحسس - بالحاء - يكون في الخير، أما التجسس - بالجيم - فيكون في الشر، قال الله تعالى: يابني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه» يوسف/٨٧، وقال سبحانه: ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً» الحجرات/١٢.

(٤) قام الرحالة فاسكو دي جاما» البرتغالي بأول رحلة له إلى المحيط الهندي، عن طريق رأس الرجاء الصالح، في محرم عام ٩٠٣هـ (١٤٩٧/٧/٨م) يقود أربع سفن تحمل حوالي ١٥٠ بحاراً بكافة احتياجاتهم، فوصل شاطىء موزمبيق، ثم مالندى بالشاطىء الشرقي لأفريقيا، وساعده الرحالة العربي أحمد بن ماجد النجدي، على اجتياز المنطقة الخطرة من المحيط الهندي والبحر العربي، حتى وصل إلى الشاطىء الهندي في شوال ٩٠٣هـ (١٤٩٨/٥/١٨م) وفي رحلته الثانية عاد إلى المنطقة يقود أسطولاً حربياً يحمل العديد من القادة والجند بغرض توطيد أقدامهم على الشواطىء الأفريقية، والعربية والهندية، في أول غزو استعماري أوروبي للشرق ثم تبعتهم هولندا، ثم بريطانيا.

الاستحواذ على أكبر قدر من تركة الرجل المريض، المتمثل في الدولة العثمانية، وتبنى بسمارك إمبراطور ألمانيا فكرة المسألة الشرقية» لإصلاح الدول والأقطار الأوروبية الخاضعة لنفوذ الدولة العثمانية، والعمل على إعطاء الشعوب المسيحية حقها في الاستقلال..

كانت الدولة العثمانية قد بلغت ذروة مجدها في عهد كل من السلطان سليم الأول (ت٩٢٦هـ/١٥٢٠م) وابنه السلطان سليمان القانوني (ت٩٧٤هـ/١٥٦٦م) حين استولت تحت راية الإسلام، على كثير من بلدان آسيا وشرق أوروبا، بما في ذلك شبه جزيرة البلقان حتى القرب من منبع نهر الدانوب[٥]، وشمل ذلك أقطار المجر، وصربيا، والبوسنة والهرسك، متوغلة في شمال أفريقيا، ابتداء من مصر حتى أقصى المغرب العربي، ومعظم شبه الجزيرة العربية[٦]. ثم ما فتىء أن أخذ التدهور السياسي، والضعف الإداري، يتسريان إلى كيانها لعدة عوامل، ومما زاد من سرعة هذا التدهور، ما لحقها من انهزامات متتالية في كثير من الحروب التي نشأت بينها وبين بعض الدول المجاورة، كروسيا، والنمسا عقب أن تحالف ضدها القياصرة الثلاثة لكل من روسيا، وألمانيا والنمسا في برلين عام ١٢٨٨ هـ١٨٧١م، وانضمت إليهم المجر. ثم تكتّلت

---

(٥) نهر الدانوب: ثاني أنهار أوروبا بعد نهر الفولجا، طوله حوالي ٨٦٠ كيلومتر، ينبع من جنوب شرق ألمانيا، ويعتبر فاصلاً طبيعياً لحدود بعض الدول الأوروبية، ويمر بكل من: النمسا، وسلوفاكيا، والمجر، ورومانيا، وبلغاريا، وأوكرانيا، وينقسم إلى ثلاثة فروع قبل أن ينتهي عند مصبه بالبحر الأسود، انظر: الموسوعة العربية العالمية، ج١٠، ص ٢٣٤.

(٦) اشتهر حوالي عشرة من سلاطين آل عثمان، نسبة إلى عثمان أرطغرل، المؤسس (ت٧٢٧هـ/١٣٢٦م) بأن أطلق على عهدهم عهد الفتوح في أوروبا، كان أولهم أورخان بن عثمان، الذي خشيه التتار، وقضى على شوكة دولة الروم البيزنطية، ومهد الطريق إلى أوروبا أمام المسلمين (ت ٧٩١هـ/١٣٥٩م) ومنهم حفيده السلطان محمد (الثاني) الفاتح، الذي حكم في عهد أبيه، واستمر في الحكم بعده ٣١ عاماً، وسمي فاتحاً لكونه فتح القسطنطينية، عاصمة الدولة الرومانية البيزنطية.

بعض دول البلقان بمساعدة كل من اليونان، وإيطاليا ، وأسبانيا ، وألمانيا ، وغيرها ، للوقوف ضدها ، حتى بدأت تفقد أملاكها شيئاً فشيئاً ، وما أن أوشك القرن الثالث عشر الهجري - القرن التاسع عشر الميلادي - على الانصرام حتى أصيبت بالهزال، وصارت في وضع أعجز فيه من أن تدافع عن نفسها ، وأصبحت كالرجل المريض، في رمقه الأخير.. الكل يستعد لالتهام تركته.. لكونه لا وريث له.

عقد مؤتمر في برلين عام ١٢٩٥هـ/١٨٧٨م، ضم كلاً من ألمانيا ، وانجلترا ، وروسيا ، وفرنسا ، وإيطاليا ، والنمسا ، والدولة العثمانية ، بغرض بحث المسألة الشرقية (تركة الرجل المريض) ألزموها فيه بالتنازل عن كثير من المناطق التي كانت قد استولت عليها في أوروبا وآسيا الوسطى، كما عقد مؤتمر آخر في برلين عام ١٣٠٢هـ/١٨٨٥م، ضم بعض تلك الدول، لتقسيم إفريقيا إلى مناطق نفوذ بينهم، بما في ذلك أملاك الدولة العثمانية [٧].

وجاءت مرحلة خشي فيها الطامعون أن يستأثر البعض منهم بالنصيب الأوفر من هذه التركة عند الإجهاز عليها ، فنشأ صراع بينهم، كان من نتيجته وجود تقارب وتحالفات جديدة ، حيث تقاربت كل من انجلترا ، وفرنسا ، وإيطاليا ، للتنسيق فيما بينهم، وتلافي الصدام في المصالح قدر الإمكان، ثم تحول هذا التقارب إلى اتفاق للتكتل فيما بينهم عُقد عام ١٣٢٢هـ/١٩٠٤م، وانضمت إليهم روسيا بعد ثلاث سنين من توقيعه ، مبتعدة بذلك عن ألمانيا التي كانت مرتبطة بها منذ حلف القياصرة.. واتجهت ألمانيا نحو الدولة العثمانية تشد من أزرها حتى لايلتهمها الفريق الأول وحده.. وبدأت

---

(٧) د. عبدالرحمن الرافعي، مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال، ص ٣٣.

الدولة العثمانية تفتح لها صدرها ، وتؤثرها على غيرها في تنفيذ مشروعاتها الصناعية والاقتصادية.

كانت بريطانيا قد عبرت من قبل إلى الهند ، وأسست شركة الهند الشرقية عام ١٠٠٩هـ/١٦٠٠م، وجهدت في تقويض نفوذ البرتغاليين، ثم الهولنديين، وتفردت بنصيب الأسد ، وأخذت تعمل على احتلال الموانئ ، وإنشاء المستعمرات لحماية طريق مواصلاتها إلى الهند ، فاحتلت عدن عام ١٢٥٥هـ/١٨٣٩م، ومصر عام ١٣٠٠هـ/١٨٨٢م، وأصبحت لها السيطرة البحرية في كل من البحر الأحمر، والخليج العربي، كما احتلت العديد من المناطق في شتى بقاع الأرض، حتى أطلق عليها الإمبراطورية التي لا تغرب عن ممالكها الشمس.

أما فرنسا فقد احتلت أقطار المغرب العربي، تونس، والجزائر، والمغرب الأقصى، بالإضافة إلى بعض المناطق الأخرى في إفريقيا ، وشرق آسيا ، وقامت إيطاليا باحتلال أرتيريا ، وطرابلس الغرب (ليبيا) وحاولت روسيا التسرب إلى مياه الخليج العربي عن طريق فارس (إيران) فتصدت لها بريطانيا ، وحالت بينها وبين الاتفاقات التي كانت ستوقعها مع إيران للسماح بإنشاء محطات تموين تجارية ، وسكك حديدية وغيرها[٨].

---

(٨) ما سبق مما أوردناه موجزاً، يوجد مفصلاً في كثير من المراجع، منها: تاريخ الدولة العثمانية ، د. علي حسون، مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال، د. عبدالرحمن الرافعي، إفريقية الشرقية والاستعمار الأوروبي، د. السيد رجب حراز، آسيا والسيطرة الغربية، تأليف: ك، م، بانيكار، ترجمة عبد العزيز جاويد، مراجعة أحمد خاكي، الدولة العثمانية والشرق العربي، د. محمد أنيس، الدولة العثمانية والمسألة الشرقية، د.محمد كمال دسوقي، الدولة الإسلامية دولة مفترى عليها ، د. عبدالعزيز محمد الشناوي، تاريخ الدولة العثمانية العلية ، محمد فريد.

أثمر التقارب بين ألمانيا والدولة العثمانية عن قيام ألمانيا باستغلال قدراتها الاقتصادية وخبراتها الصناعية الحديثة في تنفيذ المشاريع الصناعية والاستثمارية التي تحتاجها الدولة العثمانية، بعد أن رأت فيها الدولة صديقاً وحليفاً خالياً من الضغائن والموروثات السابقة، وليس لها اهتمامات بالسيطرة واحتلال الأراضي(٩)

فعهدت لها الدولة بإنشاء بعض المشاريع الصناعية، والتنقيب عن البترول، وإقامة السكك الحديدية، بدأته بإنشاء خط حديد الشرق من برلين إلى استانبول عام ١٣٠٥هـ/١٨٨٨م، وخط آخر من شرق البوسفور إلى أنقرة عام ١٣١٠هـ/١٨٩٣م، وتبعه إنشاء خطوط داخلية بين بعض المدن العثمانية لربط بعضها ببعض، ثم رأت الدولة مد خط من استانبول إلى كل من بغداد، والبصرة، وصولاً إلى الخليج العربي، وفرع آخر يخترق الشام إلى المدينة المنورة، ويمتد إلى مكة المكرمة،(١٠) وقدمت شركات إنجليزية، ونمساوية، وروسية، وألمانية عروضها لتنفيذ هذا المشروع الضخم، لكن الدولة آثرت الشركة الألمانية على غيرها لتنفيذه(١١)

---

(٩) تم توحيد ألمانيا عام ١٢٨٧هـ/١٨٧٠م، تحت مسمى الأمبراطورية الألمانية» على يد المستشار بسمارك، ثم عندما تولاها وليم الثاني عام ١٣٠٧هـ/١٨٩٠م، كانت قد أصبحت قوة اقتصادية وصناعية هائلة، فبدأت تبحث عن مكان لها في العالم، فكان هدفها في البداية استغلال اقتصادها وصناعاتها والسعي للبحث عن أسواق لاستغلاله فيها، فوجدت في الدولة العثمانية ما يحقق هدفها، فارتبطت بها، ثم جاء هدفها الاستعماري بعد ذلك. أي قبيل الحرب العالمية الأولى، الموسوعة العربية الميسرة، ج١، ص٢٠٩، ٢١٠، ٧٠٢.

(١٠) لم يستكمل خط الحجاز إلا إلى المدينة المنورة، نظراً لتأزم الموقف الدولي قبيل الحرب العالمية الأولى.

(١١) د. خالد محمد السعدون، العلاقات بين نجد والكويت، ص ٢٤، ٢٥، ود. محمد كمال الدسوقي، المرجع السابق، ص ٣٠٦.

وهنا أحست بريطانيا بخطورة هذا المشروع على مصالحها في الخليج، لأنه سيسهل للألمان حركة انتقالهم إلى الخليج، باستعمال خط حديد الشرق من برلين، حتى البصرة، مروراً بقلب الدولة العثمانية. فحاولت إعاقة تنفيذه. وزادت حدة التنافس والصراع في الخليج ابتداء من عام ١٣١٥هـ/١٨٩٨م، بين كل من بريطانيا، وألمانيا، وروسيا التي لم تيأس من البحث عن موضع قدم لها تطل به على الخليج، وذلك بالإضافة إلى الدولة العثمانية التي تتعلل بأنها صاحبة الشرعية في الوجود بالمنطقة.. بينما الحقيقة أن وجودها لا أثر له في هذه الفترة، وعلى الأخص في جنوب الخليج، ووسط شبه الجزيرة العربية.

المهم أن هذه القوى الأربع، كان كل منها يرصد الآخر، ويحصي عليه حركاته، ويحلل تصرفاته ليستنبط أو يتوقع منها نواياه المستقبلية في منطقة الخليج، وكانت بريطانيا أشدهم في مجال الترصد، نظراً لخبرتها، وقوة نفوذها في المنطقة.. وأيضاً كل منها يسعى لمصلحته على حساب أهل المنطقة.

الوضع السياسي للقوى المحلية

أما القوى المحلية في ذاك الوقت فيمكن تقسيمها إلى ثلاثة أقسام، حسب الأقاليم والمناطق التي يسيطرون عليها:

١- مناطق كانت الدولة العثمانية قد بسطت نفوذها المباشر عليها منذ زمن، كولاية بغداد، والشام، وما يتبعهما، فقد كانت الدولة تقوم بتعيين ولاة عليهما بين الحين والآخر. وكذا ولاية اليمن فيما عدا المنطقة الشمالية الجبلية (صعدة وما حولها) التي ظلت بأيدي الأئمة الزيديين الذين رفضوا في معظم الأحيان حكم الولاة العثمانيين، وقد ساعد فتح قناة السويس عام ١٢٨٦هـ/١٨٦٩م، العثمانيين على استعادة نفوذهم إلى حد ما على معظم أرض اليمن، كما سيطروا على منطقة عسير، وجعلوها متصرفية متميزة

تتبع استانبول مباشرة، وشملت حدودها تهامة عسير (جازان) وجنوباً حتى ميدي[١٢] وكذلك ولاية الحجاز، وإن كان لها وضع خاص عن بقية الولايات العثمانية، حيث اقتصرت الإمارة فيها على الأشراف، بهدف إمامة الحجيج في مواسم الحج، والعمل على تأمين سلامتهم، وسلامة الأماكن المقدسة، وتأمين الطرق المؤدية إليها، وكان يصدر منشور من الباب العالي بتعيين شريف مكة، أو عزله عندما يحدث منه تقصير، وكان هناك والٍ عثماني بجانب الشريف، للشئون العسكرية للمحافظة على حدود الولاية من الاعتداء الخارجي، بالبحر الأحمر، وقد ضمت إليه ولاية الحبشة (الصومال وأريتريا وجزء من أراض الحبشة حالياً) في بعض الفترات، وكان ذلك الوالي يشارك في اختيار وترشيح الشريف، ويرفع بذلك للباب العالي. وخلال هذه الفترة كان شريف مكة هو الشريف عون الرفيق باشا[١٣] الذي تولى الإمارة بعد عزل الشريف عبد المطلب بن غالب عام ١٢٩٩هـ/١٨٨٢، واستمر في منصبه حتى وفاته عام ١٣٢٢هـ/١٩٠٤م. وكان والي الحجاز عثمان نوري باشا قد رشح أخاه الأصغر عبدالإله بن محمد بن عون لكن الباب العالي لم يأخذ برأيه، وعين بدلاً منه عون الرفيق باشا، ولذا حدث خلاف بينهما[١٤]، فأصدر الباب العالي قراراً بنقل عثمان نوري، وعين بدلاً منه أحمد راتب باشا والياً على الحجاز، فكان الوفاق بينهما، ويبدو أن الشريف والوالي العثماني كانا

---

(١٢) انظر كتاب البيان في تاريخ جازان وعسير ونجران» للباحث، ج٢ ص١٨٠ وما بعدها.

(١٣) الشريف عون الرفيق باشا، هو الابن الأوسط للشريف محمد بن عوني، تولى إمارة مكة من قبل نيابة عن أخيه الشريف حسين عام ١٢٩٤هـ، ثم استدعته الدولة إلى استانبول وعينته في مجلس شورى الدولة، إلى أن تم تعيينه أميراً على مكة المكرمة عام ١٢٩٩هـ/١٨٨٢م. فاستمر في هذا المنصب حتى وفاته عام ١٣٢٢هـ/١٩٠٤م.

(١٤) انظر فيما سبق كتاب أمراء مكة في العهد العثماني» تأليف إسماعيل حقي أوزون جارشلي، ترجمة الدكتور خليل على مراد، ص ١٨٠، ١٨١.

يميلان إلى الهدوء والسكون، ولا يرغبان في المغامرة أو الشهرة، لذا ظلا ساكنين خلال المرحلة الأولى لتوطيد الملك عبد العزيز أقدامه في نجد، وحروبه مع ابن رشيد، وكذلك الشأن بالنسبة لمتصرفية عسير، التي تعتبر من أقرب المناطق اتصالاً بنجد، وكان متصرفها العثماني في هذا الوقت هو إسماعيل باشا حقي (١٣١٩هـ/١٣٢٥هـ) الذي لم يحرك ساكناً هو الآخر، وربما رأوا فيما يحدث أنها أمور داخلية في إمارة مجاورة، من الأجدى لهم ألا يزجوا بأنفسهم لمساعدة طرف على آخر، لا سيما وأنه ليس لديهم الاستعدادات الكافية، ولديهم من المشاكل ما يستنفد طاقتهم.

٢- مناطق شبه مستقلة، تدار داخلياً بالاستقلال الذاتي، وتخضع في ولائها للدولة العثمانية، وكان من بينها إمارة آل رشيد، والكويت، وقطر. فقد كان الحكم فيها وراثياً، لا تتدخل الدولة في اختيار أو تعيين الحاكم، وإنما يتم اختياره من بين أبناء الأسرة الحاكمة، وتوافق الدولة عليه، وكان يصدر مرسوم من الباب العالي بذلك، بغرض استكمال الصورة الشكلية للتبعية.

٣- مناطق ابتعدت - تحت ظروف مختلفة - عن نفوذ الدولة العثمانية، وسيادتها الرسمية، وإن كانت تكنّ لها الولاء الضمني والخلقي لكونها دولة إسلامية كبرى، فكان بعضهم يفضل رفع العلم العثماني على سفنه، وهي تعبر الخليج.. من هذه المناطق: البحرين، وعُمان، والإمارات العربية المتحدة - إمارات الساحل العماني سابقاً - وهؤلاء كانوا قد ارتبطوا بمعاهدات وتحالفات مع بريطانيا ذات النفوذ في المنطقة، بغرض الحماية وضمان المصالح المشتركة.

وكانت الدولة العثمانية يحكمها في ذاك الوقت السلطان عبدالحميد الثاني ابن السلطان عبدالعزيز، الذي تولى في ١٠ شعبان ١٢٩٣هـ/١٣ أغسطس

١٨٧٦م، ثم خلع في ٦ ربيع الثاني ١٣٢٧هـ/ ٢٧ أبريل ١٩٠٩م، وكانت قد بدأت في عهده أصوات تنادي بإحياء الطورانية، لتفضيل الجنسية التركية على ما عداها، والعمل على محو الجنسيات الأخرى ودمجها في الجنسية التركية، وإعلاء شأن اللغة العثمانية، وفرضها على الجنسيات الأخرى للشعوب التي تفرض هيمنتها عليها، بغرض تعلّمها دون غيرها، وحظر الكتابة في الشئون الرسمية بغير اللغة العثمانية، وغير ذلك من آراء تبنتها بعد ذلك جمعية الاتحاد والترقي» التي قامت بخلع السلطان عبد الحميد عام ١٣٢٧هـ (١٩٠٩م) وأتت بأخيه السلطان محمد رشاد.. لكن الأقدار لم تمهلها.. إذ كانت الحرب العالمية الأولى التي قضت على الإمبراطورية العثمانية، وتبخرت معها تلك الأحلام التي تبنتها جمعية الاتحاد والترقي..

هذ الجو المشحون بالنزاعات والصراعات السياسية، على المستويين الدولي والمحلي، والتي تناثرت تفاعلات أحداثه في سماء المنطقة، كان وقع تلك الأحداث المتتالية ونبضها، يُسمع واضحاً في سماء الكويت، ويتردد في محافلها، خلال الفترة التي أقام فيها عبد العزيز مع والده الإمام عبد الرحمن، في الكويت، فغرست في نفسه - منذ الصغر - الدراية والحسّ الواعي بشئون السياسة الدولية، ومعايير التوازنات بين القوى العالمية والمحلية، ولذا كان بارعاً في التعامل معها بمختلف اتجاهاتها، في المستقبل، بل إنه وظّفها فيما بعد في خدمته بصورة جيدة. وأسلوب صادق في التعامل، بعيداً عن ألاعيب السياسة المتدنية.

الفَصْلُ الثَّانِي

الظروفُ التي واكبت مَولِدَهُ ، وَنَشأتَهُ

- مَولِدُهُ
- نَشأتُهُ ، وَمُمَيِّزاتُ شَخصِيَّتِهِ
- معركةُ الصَّريف ، وَوَثبَتُهُ الأولى
- فيما بَعدَ الصَّريف

مولـــده

اختلف المؤرخون في تحديد ميلاد الملك عبد العزيز، اختلافاً بيِّناً، مما اقتضى إمعان النظر في تلك الأقوال تمحيصاً للصواب، أو وقوفاً على أقربها من الصواب، ولو كانت هناك يومها سجلات ترصد فيها أسماء المواليد يومياً لأمكن الوصول لمعرفة الصواب بأيسر السبل، غير أن المولود كان يقرن تاريخ ميلاده، في الغالب بإحدى الوقائع، أو الحوادث المشهورة.. أو بالذهاب أو الإياب من رحلة أو عمل معين. فضلاً عن أن الحوادث التي كانت تموج بها البلاد وقتها، باتت كفيلة بأن تطغى على ميلاد أيّ مولود..

والأقوال كثيرة، لكن أشهرها قولان: الأول: أنه ولد في ذي الحجة عام ١٢٩٣هـ، والثاني: أنه ولد في ذي الحجة عام ١٢٩٧هـ.

فأصحاب الرأي الثاني يعلّلون رأيهم بأنه يوم رحيله مع والده وإخوته عن الرياض عام ١٣٠٨هـ (١٨٩١م) كان غلاماً صغيراً، ملفوفاً في كساء يشبه الخرج، لديه أحد عشر عاماً، ولذا فإنه يوم أن عاد واسترد الرياض عام ١٣١٩هـ، لم يكن قد جاوز العشرين إلا بعام واحد.. أي أنه كان قد أنهى العقد الثاني وفي بداية العقد الثالث من عمره، وهذا مبعث إعجاب المؤرخين به كفتى أقدم على عمل بارع، استرد به ملك آبائه وأجداده وهو في سن العشرين، أو تجاوزها بقليل..

وأصحاب الرأي الأول يقولون إن الدلائل والمؤشرات تفيد بأنه ولد في ذي الحجة عام ١٢٩٣هـ.. يقول الزركلي[١٥] تناقل أكثر الكاتبين عن الملك

---

(١٥) الزركلي شبه الجزيرة في عهد الملك عبدالعزيز ج١ ص ٥٨، وانظر أيضاً مقالة للأستاذ عبدالرحمن بن سليمان الرويشد، نشرتها كل من جريدة الشرق الأوسط، العدد ٦٨٩٩ بتاريخ ١٤١٨/٦/١٧هـ، الموافق ١٩٩٧/١٠/١٨م، وجريدة الجزيرة (السعودية) بتاريخ

عبدالعزيز في حياته، أنه ولد عام ١٢٩٧هـ (١٨٨٠م) حتى أن المؤرخ الأديب خالد الفرج، وضع حساباً لذلك بالحروف الأبجدية، وقويت هذه الرواية بما نقل عن لسان عبدالعزيز من أنه كان غلاماً حينما خرج من الرياض عام ١٣٠٨هـ[١٦] ملفوفاً في كساءٍ أشبه بالخرج، غير أن المتصلين بعبد العزيز، من زمن طويل، يذكرون أنه بما جبل عليه من حيوية، كان يكره أن يشعر نفسه بالاقتراب من سن الشيخوخة، أو دخولها..

فما زال يكرر أنه يوم هجرته مع أبيه من مسقط رأسه كان ابن إحدى عشرة سنة. حتى صدّق من حوله ذلك ..- ويستطرد الزركلي فيقول - :

على أني رجعت إلى أديب آل سعود، وعالمهم، الأمير عبدالله بن عبدالرحمن، أخي الملك، فسألته فأجاب: كان الملك عبدالعزيز، رحمه الله، يود أن يقال إن مولده سنة ١٢٩٧هـ، ولكن الصحيح أنه ولد في أواخر عام ١٢٩٣هـ، (١٨٧٦م).. ورأيت في قيود عندي - الكلام ما زال للزركلي - أنه لما ولد كان أبوه عبدالرحمن في بلدة ضرمى، وبشر بولادته ليلة ١٩ ذي الحجة، فأضفت هذا إلى ذاك، ورجحت أنه الصواب، أي أنه ولد ليلة ١٩ ذي الحجة عام ١٢٩٣هـ، ونحن نميل إلى أن هذا هو الصواب لعدة اعتبارات ومؤشرات. والدلائل والمؤشرات التي تؤيد ذلك، منها ما يلي:

١٤١٨/٦/١٨هـ ١٩٩٧/١٠/١٩م. يعطي فيها من الدلائل مايؤكد أن مولده كان عام ١٢٩٣هـ.

(١٦) بعد أن خرج الإمام عبدالرحمن بأبنائه من الرياض، وتركهم في البادية، عاد ومعه بعض أهل البادية، ووقعت بينه وبين ابن رشيد معركة بالقرب من حريملاء وذلك أوائل عام ١٣٠٩هـ، لم يتمكن فيها الإمام عبدالرحمن من التغلب على ابن رشيد.. فعاد إلى البادية، وكان هذا آخر لقاء بينه وبين محمد بن رشيد.

١- يقول فؤاد حمزة[١٧] : سألت الملك عبدالعزيز عما إذا كان قد تقابل مع محمد بن رشيد ، فقال: نعم، قابلته وعزاني في أخي فيصل، وقال لي: عسى أن يجعلك الله عوضاً عنه....

ومعروف أن فيصل بن عبدالرحمن، أخا الملك عبدالعزيز، توفي أواخر عام ١٣٠٧هـ، (١٨٩٠م)[١٨] في الرياض، وكان عبدالعزيز وقتها يبلغ من العمر ١٤ عاماً، وهو سن يبلغ الفتى فيه مرحلة النضوج بحيث يتقبل العزاء وغيره من شئون الحياة، بخلاف ما لو كان عمره ١٠ سنين.

٢- إن عبدالعزيز كان أحد الذين خرجوا لمفاوضة ابن رشيد، وعقد الصلح معه عندما قدم وحاصر الرياض، أوائل عام ١٣٠٨هـ (١٨٩٠م) وكان الآخرون هم محمد بن فيصل، أخو الإمام عبد الرحمن، والشيخ عبدالله بن عبداللطيف آل الشيخ، والشيخ حمد بن فارس.. وذلك خلال الفترة الثانية لحكم الإمام عبدالرحمن للرياض[١٩]، وقد نجح المفاوضون في عقد الصلح، ورجع ابن رشيد لحائل.. وكان عبدالعزيز وقتها يبلغ من العمر ١٥ عاماً.. وهو سن يجعل الفتى الطموح ناضج العقل والفكر، ويؤهله لأن ينوب عن أبيه ويكون عضواً في وفد قادر على المحاورة والمناقشة بوعي للتمسك بالحقوق، وعدم التسليم بأمور توقع في خطأ فادح..

---

(١٧) فؤاد حمزة تاريخ البلاد العربية السعودية» ص ١٥.

(١٨) الشيخ عبدالرحمن بن عبداللطيف آل الشيخ نسب آل سعود» ص ٢٨ .

(١٩) فؤاد حمزة - المصدر السابق - ص١٥، والزركلي - المصدر السابق ص٥٥، ٦١.

ولو كان عمره أقل من ذلك لاعتبره ابن رشيد نوعاً من الاستهانة به.. وربما رفض إجراء أي تفاوض مع الوفد.. وفي بعض الروايات التاريخية أن التعزية كانت في هذه المقابلة[٢٠].

٣- إنه ورد في إحدى وثائق وزارة الهند[٢١] برقم F.O. ٣٧١/٣٣٨٩ وتاريخ ٢٣ يناير ١٩١٨م، تقرير عن مركز ابن رشيد وعلاقاته مع زعماء العرب الآخرين، وقد ورد في التقرير وصف لعبدالعزيز آل سعود، وأن عمره - وقت إعداد التقرير حوالي ثلاثة وأربعين عاماً ومعنى ذلك أن مولده كان قبل ثلاثة وأربعين عاماً، أي (١٨٧٥/١٨٧٦م) وهي تقابل سنة ١٢٩٣هـ، وفي تقرير آخر بعنوان حاكم الصحراء/ب- ٢٤٨، أنه كان وقت رحيله مع والده من الرياض، لديه خمسة عشر عاماً، ومعروف أن الرحيل كان سنة ١٣٠٨هـ فيكون قد ولد عام ١٢٩٣هـ.

٤- إنه تزوج للمرة الأولى، زواجه الأول سنة ١٣١٢هـ (١٨٩٤م)[٢٢] ومعنى ذلك أنه تزوج وهو في سن التاسعة عشرة، على أساس أن مولده هو عام ١٢٩٣هـ وهو سن مقبول عقلاً للزواج.. وبخاصة لفتى في ظل الظروف التي كان يعيش فيها عبدالعزيز في الكويت خلال تلك الفترة.. ومن غير المستساغ عقلاً وعادة أن يتزوج وعمره ١٥ سنة في ظل تلك الظروف..

---

(٢٠) فؤاد حمزة - المصدر السابق - ص١٥.

(٢١) صورة الوثيقة موجودة بدارة الملك عبدالعزيز، وكذا صورة التقرير/ب ٢٤٨.

(٢٢) الزركلي - المصدر السابق - ج٣ ص٩٥٣، وقد أشار إلى أن زواجه الأول تم وعمره حوالي تسعة عشر عاماً. ثم إن يوسف آل إبراهيم كان قد أهدى الإمام عبدالرحمن مبلغاً من المال لهذه المناسبة، ومعروف أن يوسف آل إبراهيم كان قد ترك الكويت عام ١٣١٣هـ بعد مقتل محمد وجراح آل الصباح على يد أخيهما مبارك.

٥- عقب موقعة المليداء بين ابن رشيد وأهل القصيم في ٣ جمادي الآخرة ١٣٠٨هـ (١٨٩٠م) وتغلبه على أهل القصيم، ثم وصول الأخبار بأنه في طريقه إلى الرياض، لمجابهة الإمام عبدالرحمن، حاكمها وحاكم المنطقة الجنوبية حسبما تم في اتفاق الصلح بينهما في بداية هذا العام - والذي أشرنا إليه - وذلك بسبب تأييد الإمام لأهل القصيم، ووقوفه بجانبهم، عقب ورود تلك الأخبار جمع الإمام عبدالرحمن أهله وأبناءه وبعض رجاله، وفارق الرياض إلى البادية، في منتصف شهر رمضان ١٣٠٨هـ (١٨٩١م) موغلاً في البادية، ونزل على قبائل آل مرة والعجمان، بين يبرين والأحساء، وعقب أن وضع رحاله بالبادية أرسل ابنه عبد العزيز إلى الشيخ عيسى آل خليفة، شيخ البحرين، يستأذنه في إقامة النساء والأطفال بجواره، فذهب وعاد ناجحاً في مسعاه، فحملهنّ ومعه أخوه محمد بن عبد الرحمن وبعض أتباعهما، إلى البحرين، ثم عاد لمضارب أبيه في الصحراء يتعلم الفروسية وركوب الخيل، مع أقرانه من أبناء آل مرة، والعجمان.. وانطلق في سفارة ثانية إلى الهفوف، مركز الأحساء وقتها - ليفاوض الترك للإقامة في الأحساء.. وثالثة لقطر[٢٣].

وكل هذه التحركات، والأسفار، والمفاوضات، واعتماد والده عليه في كل ذلك، لا يمكن أن تصدر عنه، وعمره أقل من ١٥ سنة مثلاً، بل إن العقل لا يقبل في سهولة صدورها من فتى في هذه السن، لولا ما عرف عن عبدالعزيز من نضوج مبكر وذكاءٍ حادٍ، ورجاحة عقل منذ الصغر، مما أهله فعلاً للقيام بهذا الدور في هذه السن المبكرة، وعمره خمسة عشر عاماً..

---

(٢٣) الزركلي - المصدر السابق - ص٥٦، ٦٢، ٦٦، وفؤاد حمزة - المصدر السابق - ص١٦ - وأمين الريحاني تاريخ نجد وملحقاته، وسيرة عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل آل سعود ملك الحجاز ونجد وملحقاتها»، ص١٠٥-١٠٦، ويزيد الريحاني بأنه خرج إلى الحسا أولاً، ولكن مفاوضاته مع مندوب الوالي العثماني لم تفلح، وكان معه ابنه عبدالعزيز وقتها.. فعاد إلى البادية، ثم إلى قطر، وأقام بها شهرين.

فكل هذه الأقوال، والدلائل، والمؤشرات ترجح - إن لم تؤكد - أن مولده كان يوم ١٩ من ذي الحجة عام ١٢٩٣هـ/الموافق ١٨٧٦/١٢/٢٤م.. وهو بالتالي يدعو لعدم تعدد وجهة النظر، فيما بين من يكتبون عن الملك عبدالعزيز، في هذه النقطة بالذات.. ولا يقلل من حماسهم أنه استرد الرياض وعمره ٢٦ عاماً، بعد أن كان يقال إنه استردها وهو في سن العشرين، أو جاوزها بعام واحد، بدل ستة أعوام، ذلك لأن استرداد الرياض بالأسلوب الذي اتبعه، والطريقة التي سلكها.. موضوع يحتاج لمجموعة عقول لديها الخبرة والممارسة العملية لوضع التخطيط اللازم، ثم اختيار عناصر مؤهلة لتنفيذه.. ولو كان أحد غير عبد العزيز أقدم على هذا العمل وعمره قد جاوز الخمسين، ثم بنى ما بناه عبد العزيز.. بعد ذلك، مثل هذا الكيان الكبير.. لكان هذا كفيلاً بجعله في قمة العظماء في العصر الحديث.. فبراعة عبد العزيز، لا يقلل من شأنها أنه بدأ أعماله التي أثارت الإعجاب وهو في سن السادسة والعشرين بدلاً من الحادية والعشرين عاماً..

وأبعد الأقوال عن الصواب أن يقال إن مولده كان عام ١٢٨٥هـ (١٨٦٨م) فيكون عمره يوم الرحيل عن الرياض عام ١٣٠٨هـ هو ٢٣ عاماً، وهو يخالف ماوصفه به المؤرخون من أنه كان صغيراً محمولاً على قتب بعير، ملفوفاً بكساء، والخ، بالإضافة إلى أنه لو كان قريباً من هذا السن لظهرت له مشاركات فعالة مع أبيه في ميدان الحروب، واشتهر أمره، وورد لها ذكر في التاريخ. ولكن ذلك لم يحدث.

نشأته، ومميزات شخصيته

لا ريب أن تناول أية شخصية بالدراسة والتحليل، يستدعى التعرف على نشأة تلك الشخصية، ودراسة العوامل التي أثرت في نموها، وفي مراحل تكوينها منذ الولادة حتى مرحلة النضوج العقلي والجسمي.. وفي هذا المعنى يقول ابن

خلدون[٢٤]: بسم الله الرحمن الرحيم .. إن النفس إذا كانت على الفطرة الأولى، كانت متهيئة لقبول ما يرد عليها، وينطبع فيها من خير أو شر، لقول الرسول صلى الله عليه وسلم: كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه أو يمجسانه .. وبقدر ما سبق إليها من أحد الخُلُقَيْن (أي الخير والشر) تبعد به عن الآخر، فالعوامل المؤثرة في النشأة هي أساس تكوين أيّة شخصية.. فإن كانت العوامل خيِّرة اكتسبت الشخصية النزوع إلى الخير دائماً في سلوكها أو في معظمه على الأقل.. وإن كانت العوامل غير ذلك كانت الشخصية تنزع دائماً إلى فعل الشر في معظم سلوكها، ولهذا اهتم علماء التربية وعلم النفس بوضع الضوابط المؤثرة في النمو الإنساني بغرض خلق جيل ينزع نحو الخير، ويتصف بالأخلاقيات الحميدة.. والإسلام كان أسبق في هذا المجال حين أمر بتنشئة الأبناء على الفضائل والمكارم وحب الخير.

وإن من يمعن النظر، ويطيل التفكر في نشأة عبد العزيز، يستطيع الوقوف على مكونات شخصيته، والعناصر المؤثرة فيها على النحو التالي:

- إنه ولد في بيت أبوين اتصفا بالورع والتقوى[٢٥] فأحاطاه بكل طهر ونقاء، من أقوال وأفعال، وربياه على الأخلاقيات والصفات الحميدة، فتفتحت عيناه

---

(٢٤) ابن خلدون المقدمة» ص١٠٢.

(٢٥) أمه سارة بنت أحمد السديري، كانت من أكمل النساء، عقلاً وديناً، وحكمة وتدبيراً، توفيت أواخر عام ١٣٢٧هـ (١٩١٠م) بالرياض، وكان لأحمد السديري خمسة أبناء هم: علي، عبدالمحسن، عبدالله، عبدالعزيز، عبدالرحمن، ومن البنات ثلاث: نورة: تزوجها جلوى بن تركي بن عبدالله، وفلوة: تزوجها الأمير محمد بن فيصل، عم جلالة الملك عبدالعزيز، وسارة :تزوجها الإمام عبدالرحمن، أنجبت منه: نورة وعبدالعزيز، وسعد.

انظر فؤاد حمزة - المصدر السابق - ص١٣، والزركلي - المصدر السابق - ج١ ص٦١ وشجرة نسب آل سعود، الشيخ محمد التميمي. توجد بدارة الملك عبدالعزيز.

أول ما تفتحت على كل مشرق في بيت أبيه وأمه، وتنسم عبير العلا متمثلاً في حكم أبيه، لفترة وجيزة[٢٦] لكنها مترامية الجذور، عبر الآباء والأجداد، وما إن بلغ مبلغ الصبا حتى عهد به أبوه إلى مطوّع من أهل الخرج، كان مقيماً في الرياض اسمه عبدالله الخرجي فتعلم مبادىء القراءة والكتابة، وحفظ سوراً من القرآن الكريم، ثم قرأه بعد ذلك كاملاً على الشيخ محمد بن مصيبيح، ثم تلقى بعض مبادىء الفقه والتوحيد على الشيخ عبدالله بن عبداللطيف آل الشيخ[٢٧] وكان والده يلقنه بين الفينة والأخرى بعض الدروس الدينية والنصائح، والإرشادات.. فانغرست في نفسه مبادىء التقوى واحتل الإيمان بالله أعماق القلب منه.

- نما جسمه نمواً سريعاً، وكان متوقد الذهن، حاد الذكاء، وحاد الطبع أحياناً دائم الحركة، لا يستطيع الاستقرار في مكان واحد فترة طويلة، وهو في السابعة من عمره[٢٨] مما جعله يدرك ما يدور حوله من أحداث وصراعات على السلطة، ورأى تلك الصراعات تشد والده ليكون طرفاً فيها، فما لبث هو أن انصرف عن مقاعد الأطفال إلى محاكاة الرجال.. وينقل عن لسانه: أنه

---

(٢٦) تولى الإمام عبدالرحمن الحكم على فترتين: أولاهما: عقب وفاة أخيه الإمام سعود بن فيصل في ١٨ ذي الحجة سنة ١٢٩١هـ (١٨٧٥م) لمدة عامين تقريباً.. وثانيتهما: في ١٢ذي الحجة عام ١٣٠٧هـ حتى منتصف شهر رمضان سنة ١٣٠٨هـ (١٨٩١م) عندما فارق الرياض. انظر - الزركلي - شبه الجزيرة - ص ٥٠، ٥٥، وتحفة المستفيد بتاريخ الأحساء في القديم والجديد - محمد بن عبدالله آل عبدالقادر الأنصاري الأحسائي ص١٧٥.

(٢٧) الزركلي - المصدر السابق - ص٥٧، والوجيز في سيرة الملك عبدالعزيز، له أيضاً ص١٧.

(٢٨) الزركلي - شبه الجزيرة - ص٥٨.

أحسن استعمال البندقية وركوب الخيل كأحد الفرسان، وهو في سن الصبا[٢٩].

ولا شك أن هذه الأحداث عن السلطة والولاية قد أعطت الفتى انطباعاً أوّلياً بأن الولاية مسئولية، تحتاج إلى قوة في دين، وحزم في لين، وإحسان في قدرة، وصبر في شدة، وتجمّع بلا فرقة، وأنه لو تسرب إليها الاختلاف والتفرق انهار البناء مهما كان شامخاً.. وكل ذلك من مسئولية الوالي، أو الراعي، فالولاية مطيّة تَحْسُن وتَقْبُح بممتطيها، وابنة تكبر وتصغر - في الأعين - بحسن الأدب الذي تلقنته من أبيها.. فكان الإباء، وكان الشمم، في حكمة وتعقل..

- عند رحيله هو وأخوته وأهليهم، مع أبيه عبد الرحمن، يوم أن فارق الرياض في منتصف رمضان عام ١٣٠٨هـ إلى مضارب البدو، وحطوا رحالهم لدى قبائل آل مرة، والعجمان اختلط بأبنائهم من الفرسان، وتعلم الفروسية، وفنون القتال والكرّ والفرّ، واستقبال العدو، وتجنب سهامه أو رمحه، أو سيفه، وغير ذلك من ألوان الفروسية، ومع أن سنه كان وقتها ١٥ عاماً، إلا قليلاً، فإنه استوعب كل ذلك وبزّ أقرانه.. وساعده على ذلك جسمه الفارع، وقوة بنيته، التي تضفي عليه المهابة، والجرأة.. وكان كثيراً ما يقول: أنا نشأت في البادية فلا أعرف تزويق الكلام. كما تعلم من آل مرة أسس الدراية بتقفي الأثر، وتقصي اتجاهات سير القدم على الرمال، وهي خبرة اشتهرت بها آل مرة، كما تعلم منها مواقع ومطالع النجوم

- أكسبته فترة إقامته مع والده في الكويت، والتي امتدت حوالي عشر سنوات، الحنكة والخبرة السياسية.. وكانت أيام الشيخ مبارك الصباح مليئة

---

(٢٩) الزركلي - المصدر السابق - ص٥٧.

بالمناورات، والمحاورات السياسية، على المستوى العالمي، فيما بين الدولة العثمانية التي لها السيطرة الإسمية على بلاد العرب يومئذ، وبين بريطانيا التي تهيمن بنفوذها على شواطىء الخليج العربي[٣٠]، وبين ألمانيا وروسيا اللتين تسعيان لإيجاد منفذ لهما على الخليج، وكانت الكويت مسرحاً لتلك التيارات السياسية العالمية. بالإضافة لظهور أطماع لابن رشيد في الكويت نفسها، بغرض الاستيلاء عليها، ليطل منها على الخليج.. وسعى لخلق الذرائع والأسباب التي تمكنه من ذلك....

كان عبدالعزيز، يرقب كل ذلك، ويتابعه، ويمعن فيه العقل والفكر، وهو على مقربة من مجلس مبارك، الذي يصدر تعليماته هنا، وهنالك.. وكان مبارك يستشير الإمام عبد الرحمن في كثير من تلك الأمور، .. فاطلع على أمور السياسة العالمية، وشئوونها[٣١]، فأضاف كل هذا إلى ما تعلمه ونشأ عليه من قبل.. وكان امتزاج هذا بذاك.. هو مكونات شخصية عبدالعزيز، التدين، والإباء، والإقدام والحكمة، وتعقل الأمور، ولو جمعنا تلك المحاسن والمزايا، لوجدناها تقول: لين في غير ضعف، وقوة في غير عنف..

ومن يقرأ تاريخه الحافل، بإمعان يجد كثيراً من الوقائع والأحداث التي تدل على صدق هذه القضية في كل أعماله وأقواله، وتلك ذروة الحكمة في أي حاكم كان..

ولقد قال الحكماء، قديماً: الناس لا يصلحون إلا على الثواب والعقاب، والعطاء والمنع، والرغبة والرهبة ..فهما أصلان لكل تدبير، وعليهما مدار كل سياسة، عَظُمت أو صَغُرت، بذلك بعث الله الرسل، وأنزل الكتب.. وأقام

---

(٣٠) الزركلي - المصدر السابق - ص٦٧، ٧٣، وانظر الفصل الأول من هذه الدراسة.

(٣١) الزركلي - المصدر السابق - ص٧٠.

الوعد مع الوعيد، والرجاء من الإخافة، قال سبحانه: (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره)[٣٢].

معركة الصريف

تعتبر معركة الصريف التجربة الأولى التي ظهرت فيها بوادر النبوغ العسكري لشخصية الملك عبدالعزيز، وهذه نتيجة لها مقدماتها، والمقدمات سابقة على النتيجة أو البرهان على ما يقول المناطقة، فما هي مقدمات تلك النتيجة التي طرحناها؟.. المقدمات تتمثل في أسباب ودواعي معركة الصريف.. فما هي..؟

لقد حل الإمام عبد الرحمن الفيصل بأبنائه وأهله ضيفاً على آل صباح، في منتصف عام ١٣١٠هـ (١٨٩٢م) بعد رحلة استغرقت عامين إلا قليلاً، منذ أن فارق الرياض، وتجول خلالها بالبادية، والبحرين، وقطر، ثم استقر في الكويت بموافقة الدولة العثمانية، وبين آل سعود وآل صباح صلة قرابة من قديم؛ فصباح الذي ينسبون إليه؛ أمه لؤلؤة بنت محمد من بني مرخان جد آل سعود[٣٣].. وليس صحيحاً ما ذهب إليه لوريمر[٣٤] من أن الإمام عبدالرحمن قد استقر في الأحساء في الفترة من نوفمبر عام ١٨٩٢م حتى عام ١٨٩٧م..

ويومها كان عماد بيت آل صباح ثلاثة إخوة هم: محمد، وهو الحاكم، وكان رجلاً كريم الأخلاق إلا أنه كان ضعيف الإرادة، والثاني: مبارك، وكان يلي شئون البادية والحرب، وكان قوي الشخصية، حاد الذكاء،

---

(٣٢) سورة الزلزلة، آية ٧-٨.

(٣٣) الزركلي - المصدر السابق - ص ٢٢٣.

(٣٤) ج. ج. لوريمر - دليل الخليج - القسم التاريخي، ج٣، ص ١٦٩٤.

والثالث: جراح الذي كان يلي تصريف شئون الدولة في النواحي المالية.. واستمر الحال على ذلك بعد استقرار الإمام عبدالرحمن بالكويت - عامين ونصف تقريباً، وفي عام ١٣١٣هـ (١٨٩٦م) وثب الأخ الأوسط على أخويه فقتلهما، وانفرد بالحكم، وأصدرت الدولة العثمانية قرار تعيين مبارك» قائم مقام قضاء الكويت، وذلك عام ١٣١٤هـ (١٨٩٧م).. ويبدو أن الدولة العثمانية كانت تطمح في أن ينضوي مبارك تحت سيطرتها، وتنفيذ تعليماتها لكنه لم يكن سهلاً.. فانقلبت عليه فيما بعد، المهم أن هذا الحادث كانت له ردود فعل مختلفة، وكان من بين الأسباب لمعركة الصريف.. حيث سعى يوسف آل إبراهيم، خال أبناء المقتولين، وكبير تجار اللؤلؤ في أيامه وأغناهم[٣٥]، في تأليب الدولة العثمانية على مبارك، وبذل الكثير من ثروته للانتقام منه، وسافر في سبيل ذلك إلى قطر.. وإلى البصرة.. وإلى حائل.. وإلى الشريف في الحجاز[٣٦] وأراد أن يقيم الدنيا ولا يقعدها إلا على أنفاس مبارك.. لكن الدولة العثمانية، التي كانت تخضع لها البلاد العربية، أمست وقد أصابتها الشيخوخة، وأصبحت في النزع الأخير ..وكان خضوع البلاد العربية لها خضوعاً إسمياً ذاك الوقت.. وعندما استجاب والي البصرة لإغراءات يوسف آل إبراهيم، وهمّ بأن يسيّر قوة لمبارك، جاءته تعليمات الباب العالي بالكف عما عزم عليه[٣٧] فاتجه يوسف إلى ابن رشيد يحرضه على مبارك، لكن محمد بن علي بن رشيد لم يكن متحمساً للقيام بهذا الدور.. ورد يوسف آل إبراهيم رداً حسناً.. وإن كان قد راودته فكرة الاستيلاء على الكويت من قبل،

---

(٣٥) خالد السعدون - العلاقات بين نجد والكويت - ص ٢٨، والزركلي - المصدر السابق ص ٦٢ - ٧٠.

(٣٦) أمين الريحاني - المصدر السابق - ص ١١٦.

(٣٧) خالد السعدون - المصدر السابق - ص ٣٠.

لجعلها منفذاً لإمارته على الخليج.. وبوفاته في ٣ رجب عام ١٣١٥هـ (١٨٩٧/١٠/١م) وتولية ابن أخيه عبد العزيز بن متعب الرشيد، وجد يوسف آل إبراهيم فيه بغيته، فزين له احتلال الكويت، ونثر الأموال بين يديه.. وكان عبد العزيز بن متعب الرشيد له طموحات كبيرة.. وأطماع أكبر..

وقبل ذلك بفترة يسيرة كان الصراع الدولي على الخليج قد بلغ أشده.. بين بريطانيا التي أحكمت سيطرتها من قبل على شواطئه.. فيما عدا الكويت، والبصرة والأحساء.. وبين ألمانيا التي بدأت توطد علاقاتها بالدولة العثمانية، وتولت شركاتها تنفيذ العديد من مشروعات الدولة العثمانية، وبالذات مد خطوط السكك الحديدية[٣٨] وعرفت سفنهم طريقها للخليج، وافتتحت شركة ألمانية فرعاً لها في لنجة[٣٩] عام ١٣٠٧هـ (١٨٩٠م) بينما وصل في السنة التالية إلى بوشهر قنصل ألماني[٤٠] .. وكانت الدولة الثالثة في حلبة الصراع.. هي روسيا التي تسعى لإيجاد منفذ لها على الخليج، أما الدولة العثمانية فهي عاجزة عن منع هذا الصراع.. وكل ما تستطيع أن تفعله هو أن تحاول منع ارتباط الحكام المحليين بأحد أطراف هذا الصراع..

وأحس مبارك أن الدولة العثمانية بدأت تمد يدها لابن رشيد.. ومعنى ذلك أنها اتخذت موقفاً، وستكون بجانبه في أيّ صراع ينشأ بينهما.. فاتجه إلى بريطانيا طلباً للحماية، خاصة وأن الدولة أرسلت بعض السفن الحربية من البصرة لتهديده فلم يجد بداً من عقد اتفاقية بينه وبين بريطانيا في رمضان

---

(٣٨) عبدالعزيز الرشيد - تاريخ الكويت - ص ١٥٠.

(٣٩) لنجة - ميناء على الشاطىء الإيراني للخليج العربي، شمال جزيرة قشم ومضيق هرمز.

(٤٠) خالد السعدون - المصدر السابق - ص ٢٤، ٢٥.

عـام ١٣١٦هـ (١٨٩٩م)[٤١] وحسـمت بريطانيـا بذلـك الصـراع فـي الخليـج لصالحها في الكويت.. وضمن بها مبارك الحماية البحرية لشواطئه من أي تهديد..

وازداد التوتر بين مبارك وابن رشيد، وتهيأ الوضع لصدام بين الطرفين.. لعدة أسباب.. منها: تحرك ابن رشيد نحو جنوب العراق لكسر شوكة سعدون المنصور رئيس المنتفق، الذي كان حليفاً لمبارك في تلك الفترة، ثم إغارته في طريق عودته على بعض القبائل المقيمة في أطراف الكويت، الموالية لمبارك.. ومتابعة الإغارة على القوافل التجارية للكويت.. إضافة لوجود الإمام عبدالرحمن في ضيافة مبارك مما يقلق ابن رشيد.. ورد الفعل الذي قام به مبارك من جانبه بإرسال أخيه حمود وابنه سالم على رأس قوة للإغارة على عربان ابن رشيد[٤٢] .. وغير ذلك من أسباب. وما إن حل عام ١٣١٨هـ. إلا وكان الصدام محتماً بين مبارك وابن رشيد، وبصورة أكبر من كونها مجرد إغارة هنا أو هناك...

وكان الإمام عبدالرحمن، وابنه عبدالعزيز مقيمَيْن بالكويت بجوار مبارك، يراقبان تلك الأحداث.. وأعينهما على نجد، وما يدور فيها.. يستطلعان الأخبار من القادمين منها.. ومبارك يستشير الإمام عبدالرحمن في كثير من الأمور.. وعبدالعزيز في فؤاده جذوة متقدة.. ونفسه متوثبة.. يود أن يخوض غمار ذلك الصراع، ولكن لاسترداد المسلوب.. ومما زاد الجذوة اشتعالاً في نفسه وفؤاده.. أنه وصلت للإمام عبدالرحمن مكاتبات من أتباعه في نجد يحثونه

---

(٤١) خالد السعدون - المصدر السابق - ص ٣٤.

(٤٢) خالد السعدون - المصدر السابق - ص ٤٤، ٤٨، وعبدالعزيز الرشيد - المصدر السابق - ص ١٥٩، ١٦٠.

على التحرك ضد ابن رشيد.. ويعدونه بالتأييد والمساندة، ثم إن الإمام عبدالرحمن استجاب لتلك المكاتبات، وخرج مع بعض أنصاره، وأغار على عشائر قحطان الموالية لابن رشيد، وكانت بالقرب من روضة سدير، وعاد ظافراً[٤٣] وذلك قبيل خروج مبارك للقاء ابن رشيد في معركة الصريف..

رأى مبارك أن يعاجل ابن رشيد في عقر داره، لئلا تكون له فرصة يستعد فيها لمواجهته، فسار إليه بجيش كبير من العربان الذين انضموا إليه، كمطير، والعوازم، والعجمان، وآل مرة، والمنتفق، وبني هاجر، وعريب دار، وثلة من الظفير، ونحو ثمانمائة رجل من الكويت، أو يزيدون قليلاً، وتولى مبارك القيادة بنفسه، وصحبه الإمام عبدالرحمن وابنه عبدالعزيز.. وكانت هذه هي التجربة الأولى لعبدالعزيز، للمشاركة في معركة كبيرة كهذه.. يتولى فيها قيادة مجموعة من الفرسان.. ربما كان هو أصغر القواد فيها سناً.. حيث كان ضمن قواد جيش مبارك، أخاه حمود الصباح، وعمه خليفة الجابر الصباح، وصباح بن حمود الصباح، وسالم بن مبارك، وكان من بينهم أيضاً رؤساء آل سليم وآل مهنا، وغيرهم من أعيان عنيزة، وبريدة.. وبعد خروج هذا الجيش متجهاً صوب القصيم، لحق به سعدون السعدون رئيس المنتفق برجاله، وزحف هذا الجيش، وقد أثقلت وطأته الأرض.. وملأ الفضاء كثرة وعدداً[٤٤] ربما لأن المنطقة لم تشهد حشداً بهذا العدد منذ فترة.

وهنا نلاحظ انضمام بعض قبائل نجد وأهلها لصف مبارك.. ضد ابن رشيد، ولا ريب أن هذا نتيجة لسوء معاملة ابن رشيد، وقسوته على الناس، وميل تلك

---

(٤٣) خالد السعدون - المصدر السابق - ص ٤٦، والزركلي - شبه الجزيرة - ص ٧٣، ٧٥، وأمين الريحاني، تاريخ نجد، ص ١١٧.

(٤٤) عبدالعزيز الرشيد - المصدر السابق - ص ١٦١ - وخالد السعدون - المصدر السابق ص٥٣.

القبائل للإمام عبدالرحمن، وآل سعود بوجه عام.. ولمساعدتهم في استرداد حقهم، ولكن هذا لا ينفي أن البعض منهم انضم رغبة في الغنيمة.

وتحرك مبارك بهذا الجيش الذي بلغ تعداده عشرة آلاف رجل تقريباً، في شعبان عام ١٣١٨هـ (١٩٠٠/١٢/٢٢م) إلى حفر الباطن[٤٥] ثم اجتاز صحراء الصمّان والدهناء، ليصل إلى (الشوكي)[٤٦] في الجانب الغربي من الدهناء.. ثم توقف ليرتب صفوف جيشه، ثم تحرك منها ليصل إلى مشارف القصيم، فيما بين الصريف والطرفية، في النصف الأخير من شوال ١٣١٨هـ (١٩٠١/٢/١٢م).. وفي المقابل، فإن ابن رشيد، تعمد على ما يبدو، التأخر في مواجهة خصمه، ربما أراد بذلك أن يجره إلى ميدان معركة مناسب له، أو لأنه شعر بضعف قواته أمام ذلك الحشد الهائل، فرأى ألا يندفع قبل أن يضمن لقواته التكافؤ في العدد والعدة. ويجوز أنه كان في انتظار عتاد وأسلحة تصله من الدولة العثمانية[٤٧].. المهم أنه بعد أن استكمل استعداده تقدم من حائل لملاقاة مبارك.. ونزل الميدان مكرهاً[٤٨] على ما يقال..

وأثناء إقامة جيش مبارك لتنظيم صفوفه في الشوكي، رأى عبدالعزيز أن مبارك» يضع تخطيطاً لمعركة، وأسلوب هجوم، لا يضمن له النصر أو النجاح، وربما حاول أن يتدخل ويدلي برأيه في إجراء التعديل الذي يراه، لكن مبارك» كان صلباً، متمسكاً برأيه فلم يعط عبدالعزيز فرصة لإبداء

---

(٤٥) حفر الباطن: مكان على الطريق الممتد من القصيم وجبل شمر إلى الكويت والبصرة، على مسافة ١٦٠ ميلاً تقريباً من الكويت.

(٤٦) الشوكي: أحد أودية العرمة الشمالية، ينحدر من قمتها شرقاً، ويصب في روضة التنهات، انظر معجم اليمامة. لابن خميس، ج٢، ص٦٣.

(٤٧) خالد السعدون - المصدر السابق - ص ٥٥.

(٤٨) عبدالعزيز الرشيد - المصدر السابق - ص ١٦٢.

رأيه.. وربما كان مبارك قد رأى أن عبدالعزيز مازال فتى صغيراً.. لم تعطه التجارب الخبرة الكافية للمشاركة في وضع تخطيط لمعركة كهذه.. وبخاصة أنها تعتبر الأولى بالنسبة له.. وثانياً: لأنه يوجد من القواد من هو أكثر خبرة ودراية من عبدالعزيز.. ولم يعترض أحد منهم على الخطة.. وعندئذ طلب عبدالعزيز من مبارك أن يدعه يزحف بمجموعته إلى الرياض، ليرغم بذلك ابن رشيد على تقسيم قواته، إحداها في مواجهة مبارك... والأخرى لمطاردة قوات عبدالعزيز المتجهة للرياض وملاحقتها.. وراقت هذه الخطة في عين مبارك، واستحسنها.. ووافق عليها.. وعندئذ طلب أمراء القصيم هم أيضاً أن يزحفوا بمن معهم إلى عنيزة وبريدة، فوافق لهم، ثم تراجع .. وأسرع عبدالعزيز يقود مجموعته التي يبلغ عددها ألفاً أو أقل قليلاً.. ومعظمهم من أهل نجد.. نحو الرياض.. ومن بينهم ابن عمه عبدالله بن جلوى ..[٤٩]

اجتاز عبد العزيز ما بين الشوكي والرياض في يومين[٥٠] وهي مسافة تستغرق أكثر من يومين للوصول إلى الرياض.. سيراً عادياً.. لكنه هنا وضع خطة تعتمد على السرعة والمفاجأة.. بخلاف زحفه إليها في العام التالي.. فسبق الريح حتى لا تحمل أخبار زحفه إلى مسامع حامية الرياض، فتأخذ أهبتها للدفاع... فتحققت بذلك المفاجأة.. ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها.. ومن حاميتها.. فلجأت الحامية للمصمك محتمية به.. ودافع الأهالي قليلاً؛ لأنهم ظنوا القادم جيش مبارك.. ثم استسلموا عندما علموا أنه ابن سعود.. وكان حاكم الرياض من قبل ابن رشيد في ذاك الوقت هو عجلان بن محمد.. وبعض المصادر تقول: إنه عبدالرحمن بن ضبعان وهو قول غير صواب، ينبغي

---

(٤٩) هـ . س ارمسترنج - ابن سعود عاهل شبه الجزيرة العربية. مترجم ومازال تحت الطبع بالدارة.

(٥٠) الزركلي - المصدر السابق - ص ٧٥.

تداركه، فابن ضبعان كان أميراً للحامية، وابن عجلان أميراً على المدينة، واستمر حتى استردها عبدالعزيز العام التالي ١٣١٩هـ وكان من نتيجة ذلك أن قام ابن رشيد بنقل ابن ضبعان[٥١] إلى بريدة حاكماً لها.. كإجراءات إدارية، عقب معركة الصريف.. ويقال[٥٢] إن عبدالعزيز في زحفه للرياض هاجم فريقاً من قبيلة قحطان كانت بالقرب من روضة سدير، وقتل زعيمه: نزهان بن مريحة، كما هاجم فريقاً آخر من قبيلة قحطان كان بزعامة فيصل بن حشر آل عاصم - ويجوز أن يكون قد وجد هذا وذاك مصادفة في طريقه وهو مسرع إلى الرياض.. المهم أنه ظل محاصراً للحامية التي لجأت لحصن المصمك.

ولما طال الحصار، فكر في حفر نفق تحت جداره .. لكي يملأه بالبارود» ويشعله فتندك الجدران.. وتتهدم.. وبذلك تصل يده لمن بالداخل.. قيل: إن الذي أشار عليه بذلك هو أحد أهل الرياض، واسمه: ابن هدهود.. وأن جزاءه كان بتر يده فيما بعد، بمعرفة سالم السبهان، حاكم الرياض الأسبق، وصهر ابن رشيد... والذي أرسله ابن رشيد للرياض، عقب رحيل عبد العزيز عنها،

---

(٥١) من المصادر التي ذكرت إمارة ابن عجلان للرياض في عام ١٣١٨هـ. كتاب السعوديون والحل الإسلامي» لجلال كشك ص ٢٧٤ - ٢٧٥، وكتاب الملك عبدالعزيز ومؤتمر الكويت» لموضي بنت منصور بن عبدالعزيز ص ١٩، وكتاب تاريخ الحوادث الواقعة في نجد لإبراهيم بن صالح بن عيسى، ص ٢٠٠، أما الكتب التي أوردت إمارة ابن ضبعان فمنها تاريخ ملوك آل سعود» للأمير سعود بن هذلول، ص ٧٥، ومعجم اليمامة، لابن خميس ج١ ص٥٠، وشبه الجزيرة في عهد الملك عبدالعزيز، للزركلي ص ٧٦ وغيرها من مراجع..

(٥٢) محمد المانع - توحيد المملكة العربية السعودية - ترجمة الدكتور عبدالله العثيمين ص٣٨.

ليعاقب كل من تعاون من أهلها مع عبدالعزيز[٥٣] . وقيل: إن عبدالعزيز قد أصيب في أصبع يده برصاصة[٥٤]، وما إن مضت ثلاثة أيام على فكرة النفق تحت جدار المصمك.. حتى أتت الرياح بما لا تشتهيه السفن.. حيث انحسم الموقف في معركة الصريف لصالح ابن رشيد...

فالمجابهة بين مبارك وابن رشيد، بدأت بمعركة حامية فيما بين الصريف، في الشمال الشرقي من بريدة، وعلى مقربة من الطرفية[٥٥] يوم ٢٧ من ذي القعدة ١٣١٨هـ (١٩٠١/٣/١٧م) حيث بادرت قوات ابن رشيد باتخاذ موقف الهجوم.. فصمدت لها قوات مبارك في البداية.. وأعاد المهاجمون الكرة بصورة أشد وأعنف، مما جعل صفوف المدافعين تهتز.. وتحدث فيها ثغرات وفجوات إثر الضربات المتتالية.. حتى سرت في المدافعين روح الهزيمة.. وعندها واصل المهاجمون هجومهم بضراوة وعنف حتى فُتّ في عضد المدافعين.. رغم صيحات التشجيع التي كانت تطغى عليها أصوات الطلقات.. وصهيل الخيل.. ورغاء الإبل.. ورنين السيوف هنا وهناك.. واستمر القتال يوماً كاملاً.. في معركة

---

(٥٣) المانع - المصدر السابق - ص ٣٨، وجلال كشك - السعوديون والحل الإسلامي - ص٢٧٧.

(٥٤) الزركلي - المصدر السابق - ص ٧٦، وجلال كشك - المصدر السابق ص ٢٧٤.

(٥٥) الطرفية: على مسافة خمسة عشر ميلاً، شمال بريدة، وقال الريحاني: إن معركة الصريف وقعت في ٢٦ ذي القعدة سنة ١٣١٨هـ (١٩٠١/٣/١٦م) (وقال الزركلي: إنها كانت في ١٦ ذي القعدة (١٩٠١/٣/١٦م) مع ملاحظة توافق التاريخ الميلادي في رواية كل منهما، مع اختلاف التاريخ الهجري، ولم يحدد صاحب تاريخ الكويت - الرشيد - تاريخها، وإنما اكتفى بقوله: إنها كانت في ذي القعدة مع أن الأولى به أن يوليها اهتماماً بذكر التاريخ، طالما أنه يؤرخ للكويت، وأورد خالد السعدون أنها كانت في ذي القعدة (١٩٠١/٣/١٧م) مستنداً إلى تقرير مرفوع من وكيل الأنباء المقيم في الكويت، وهو مرفوع في ١٩٠١/٤/٨م، ويؤيد هذا ما رواه مؤرخ دليل الخليج (لوريمر) من أنها كانت في ١٩٠١/٣/١٧م ..وغالب الظن أن هذا التاريخ هو الأدق.. وهو يوافق ٢٧ ذي القعدة سنة ١٣١٨هـ.

ظلت حديث فرسان العرب وقتها ولفترة طويلة.. وأخذ البعض يبحث عن أسباب الهزيمة التي مُنِيَ بها جيش مبارك[٥٦] وأن من بينها صلابته في عدم الأخذ برأي من معه.. والويل يوم أن يكون الرأي لمن يملكه، دون من يتدبره ويعقله.. يضاف إلى ذلك اعتماده على قوات بادية جاءت في الواقع تسعى لطلب الغنائم، فلم تجد غير الموت الزؤام، فمالت للهرب.. وانهزم مبارك مع ثلة من رجاله إلى الكويت.. بعد أن أشيع أنه قتل أثناء المعركة.. وانطلق ابن رشيد يطارد فلوله المنهزمة.. ويذيقها الموت أفراداً وجماعات.. وبعث بعض أتباعه إلى القصيم ليذيقوا بعض أهله كأس المرارة .. ويعملوا فيهم القتل بلا رحمة[٥٧] .

وأياً كان فإن كلاً من الدولة العثمانية وبريطانيا ، كانت تنتظر نتيجة المعركة ، فالدولة العثمانية تناصر ابن رشيد ، وبريطانيا حليفة مبارك.. كل منهما ترقب المعركة.. لإيقاف أي من الخصمين عند حد معين..

أما عبدالعزيز فقد وصله خبر هزيمة مبارك، وبدأ يفكر في الانسحاب من الرياض، وعدم التعرض لقوات ابن رشيد ، المنتشية بفرحة النصر.. وقيل[٥٨] إن أباه الإمام عبد الرحمن أقبل إليه في الرياض، بعد هزيمة الصريف، فاستقبله عبد العزيز على مشارف الرياض، واتفقا على العودة إلى الكويت بمن معهما.. فالرأي قبل شجاعة الشجعان.. ورواية مجيء الإمام عبدالرحمن للرياض، عقب موقعة الصريف، تقول: إنه جعل طريق انسحابه قريباً من الرياض لينذر ولده عبدالعزيز بما حصل، وينسحبا معاً إلى الكويت..

---

(٥٦) خالد السعدون - المصدر السابق - ص ٥٧.

(٥٧) الأمير سعود بن هذلول - تاريخ ملوك آل سعود - ص ٥٦..

(٥٨) الزركلي - المصدر السابق - ص ٧٦، وخالد السعدون - المصدر السابق - ص ٦٩ وإبراهيم بن صالح بن عيسى - تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد - ص٢٠١.

ويروي الزركلي[٥٩] أن ثقات الملك عبدالعزيز يقولون: إنه لم يكن يتوقع النصر لجيش ابن صباح في معركته هذه مع ابن رشيد، قبل نشوبها.. وأنه - أي عبدالعزيز - أبى- وهم في الشوكي- أن يخاطر بسمعته، وبذوي قرباه من آل سعود في المشاركة بمعركة خاسرة، ووفق إلى فكرة الانفصال عن جيش ابن صباح، فلما عاد للكويت، وقابل ابن صباح.. نظر إليه ابن صباح وقال، وهو يوجه الكلام للإمام عبدالرحمن: إن ولدك سيثأر لك».

ولقد أطلنا، نوعاً ما، في عرض وقائع معركة الصريف لنستوحي منها النتائج التالية:

- إن معركة الصريف كانت أولى المصادمات الفعالة، بين مبارك وبين ابن رشيد وأنها أظهرت مدى براعة كل منهما في ميدان الحرب.. وكان لها آثارها على سياسة كل منهما فيما بعد..
- إنها تعتبر من أكبر المعارك، التي دارت في شبه الجزيرة العربية، أو على الأقل في هذه المنطقة، في بداية القرن الرابع عشر الهجري، استعملت فيها أسلحة حديثة، وحشد هائل من قوات الطرفين، وتابعتها بكل اهتمام الدول التي لها نفوذ وسيطرة على المنطقة.. وذلك كله بالنظر لمعايير حجم الحروب في وقتها، ومقاييسها من كل النواحي..
- إنها أظهرت النبوغ المبكر لشخصية الملك عبدالعزيز، في النواحي العسكرية، وهي القضية التي طرحناها في البداية.

---

(٥٩) الزركلي - المصدر السابق - ص ٧٦.

- إنه عندما تأتي الأيام، وتحدث تصادمات وحروب بين عبدالعزيز وابن رشيد، ويتفوق فيها عبدالعزيز، على براعة وشجاعة ابن رشيد في الحروب.. فمعنى ذلك أن براعة عبدالعزيز قد فاقت براعة ابن رشيد بمراحل؛ ذلك لأنه لم يتغلب عليه في معركة واحدة، بل في معظم المعارك التي دارت بينهما خلال خمس سنوات حتى توفي ابن رشيد في روضة مهنا فيما بعد[٦٠].. .. وما أكثرها من معارك، وأشدها ضراوة.. لذا فلم يبالغ من وصف عبدالعزيز: بأن شجاعته فاقت شجاعة الشجعان..

- إنها أتاحت لعبدالعزيز فرصة التعرف بشكل جيد ودقيق، على معالم الرياض، وأسلوب حراستها، ونقاط الضعف والقوة في تلك الحراسة، مما مكنه من استغلال تلك النقاط في تخطيطه لاستردادها - في العام المقبل - كما وضع أيضاً في تخطيطه الاستيلاء على حصنها المنيع، أولاً وقبل أي شيء، .. فقد عرف أن الاستيلاء على المدينة أمر غير ذي جدوى بدون الحصن، ولذا نلحظ أنه عند استرداده للرياض، وعندما خرج عجلان من الحصن فاجأه عبد العزيز ورفاقه، فأصيب عجلان وحاميته، بصدمة من هول المفاجأة، أربكتهم، وحالت بينهم وبين السيطرة على الموقف، وظنوا أن المدينة قد استسلمت وهم في غفلة نائمون.. وعرف من تحصن في الجزء الأعلى للمصمك ألا سبيل للنجاة سوى الاستسلام، وبخاصة بعد موت قائدهم.. فماذا يكون الحال لو وضع عبد العزيز خطته بأن يستولى على المدينة أولاً، كما في هذه المرة، ويترك الحصن للنهاية، لا شك أن النتيجة ستكون

---

(٦٠) توفي عبدالعزيز بن متعب الرشيد، في معركة روضة مهنا - ليلة ١٨ صفر سنة ١٣٢٤هـ (١٩٠٦/٤/١٤م)

مغايرة لما حدث ليلة المصمك، وفجرها المشرق».. وكل هذا يدل على براعة عبدالعزيز، ونبوغه المبكر في الميدان الحربي....

- إنها أضفت عليه الثقة في أي عمل يقوم به.. وأنه استنتج من خلال موقف مبارك، عند الشوكي، أنه لا يمكنه الاعتماد على قيادته، وأن عليه أن ينفرد بوضع خططه بنفسه مستقبلاً[٦١] .. وأن عليه التفكير في وضع الخطة لاسترداد الرياض والتمكن فيها... بمجرد العودة للكويت.. فقد أعطته تلك الوثبة ثقة، في نفسه لا حدود لها.. تؤكد ما وقر في قلبه من إيمان بالله، ورضى بقضائه. وأن ما قدر سوف يكون.. وأن الصعاب تهون أمام أولى العزم.. وأن العظائم كفؤها العظماء.. ثم أجال الفكر وأطاله للعودة للرياض.

- إننا نريد أن نؤكد على نقطة سبق أن عرضناها بإفاضة، وهي تاريخ مولده، ونود أن نشير هنا إلى أن إنساناً على هذا المستوى من التفكير والإدراك.. وهذا العقل الناضج.. والتدبير المحكم.. والقيادة الرصينة.. للشخص لا يتصوره العقل دون العشرين من عمره، أو حتى العشرين، يوم معركة.. الصريف.. وهذا لمجرد التأكيد لقول سبق..

- إن استيلاءه على الرياض، أعطاه الفرصة لإثبات موهبته القيادية، كما أعطته فرصة الاطلاع على شئون الحكم، وممارسة أعماله، من خلال حكمه للرياض، وحصار المصمك.. ولو لفترة قليلة..

---

(٦١) المانع - المصدر السابق - ص ٣٩.

فيما بعد الصريف

ترك عبد العزيز الرياض وعاد إلى الكويت، بعد أن عرف نتيجة معركة الصريف يقول الريحاني: أنه احتل الرياض لمدة أربعة أشهر فقط[٦٢] لكن هذا القول فيه نظر.. وبعملية حسابية بسيطة للتحركات والحوادث نجد أن المدة أقل مما ذكره الريحاني..

ذلك أن مبارك»، خرج من الكويت في شهر ديسمبر سنة ١٩٠٠م (يوم ١٩) كما أورده ج.ج. لوريمر[٦٣] أو (يوم ٢٢) كما جاء في برقية من وكيل بريطانيا السياسي في البحرين إلى المقيم البريطاني في الخليج بتاريخ ١٩٠١/١/١١م[٦٤] وكلا التاريخين يوافقان أواخر شهر شعبان، وأوائل شهر رمضان سنة ١٣١٨هـ، واستمر مبارك في تحركه، متجهاً صوب القصيم، حتى وصل إلى الشوكي في النصف الأول من شوال، ومن هذا المكان بدأ ينظم صفوف جيشه، ويوزع مهام القواد.. ومنها تحرك عبدالعزيز على رأس مجموعة من الفرسان، واتجه للرياض، ووصلها بعد يومين، أما مبارك فتحرك بعد ذلك حتى وصل إلى مشارف القصيم، فيما بين الصريف والطرفية في ٢٢ شوال سنة ١٣١٨هـ (١٩٠١/٢/١٢م) وظل في انتظار ابن رشيد، الذي أقبل إليه، ودارت المعركة في ١٧ ذي القعدة سنة ١٣١٨هـ (١٩٠١/٣/١٧م).. وعاد مبارك بعد المعركة للكويت في (١٩٠١/٣/٣١م)[٦٥] وهو يوافق ١١ ذي الحجة سنة ١٣١٨هـ، وبعد وصول مبارك بعدة أيام وصل إليها عبدالعزيز،

---

(٦٢) الريحاني - المصدر السابق - ص ١١٩.

(٦٣) ج. ج. لوريمر - المصدر السابق - القسم التاريخي، ج٣، ص ١٦٩٧.

(٦٤) خالد السعدون - المصدر السابق - ص ٥٣.

(٦٥) خالد السعدون - المصدر السابق - ص ٥٦.

كما جاء في دليل الخليج[٦٦] وهو بالتقريب في أواخر ذي الحجة عام ١٣١٨هـ.

وعلى ضوء تلك التواريخ تبين أن المدة الزمنية، منذ أن ترك عبد العزيز جيش مبارك، في الشوكي واتجه للرياض، في النصف الأول من شوال، حتى عودته للكويت أواخر ذي الحجة سنة ١٣١٨هـ، قد جاوزت الشهرين ولم تتعد الثلاثة، ولهذا أيضاً قال الزركلي: إن حملة عبدالعزيز اضطرت للعودة للكويت، بعد أربعة أشهر من مغادرتها[٦٧] أي منذ غادر الكويت في أواخر شعبان، أو أوائل رمضان - كما سبق أن وضحناه - وعادت أواخر ذي الحجة من العام نفسه (١٣١٨هـ).

ويقول المانع: إن عبدالعزيز بعد أن علم بنتيجة معركة الصريف كان موقفه صعباً، فدعا كبار أهل الرياض وأخبرهم أنه ذاهب ليجمع أعواناً من القبائل المجاورة، ثم يعود إليهم، وكان ذلك في الحقيقة مجرد حجة لمغادرة الرياض، بعد أن أصبح موقفه حرجاً حينذاك.. وبعد أن غادر الرياض، اتجه جنوباً نحو يبرين، على حافة الربع الخالي، ثم مضى من هناك إلى قطر، حيث أبحر مع عدد من رفاقه إلى البحرين، ثم عاد للكويت[٦٨].

ويلاحظ أن هذه الرواية لم تشر إلى وجود الإمام عبدالرحمن ضمن العائدين مع عبدالعزيز للكويت.. بل أوردت ما يفيد أن الإمام عبدالرحمن كان قد سبق عبدالعزيز للكويت، وأنه بدأ مع مبارك في التهيؤ لصد أي هجوم على الكويت.

---

(٦٦) ج. ج. لوريمر - المصدر السابق - القسم التاريخي، ج٣، ص ١٥٤٠.

(٦٧) الزركلي - المصدر السابق - ص ٧٦.

(٦٨) المانع - المصدر السابق - ص ٣٩.

ولقد بلغت الصراعات الدولية ذروتها على المسرح السياسي للكويت، خلال الأشهر التي أعقبت معركة الصريف.. بصورة يصعب إيرادها هنا بإفاضة.. وإنما نجملها بهدف ربط الأحداث التاريخية.. ولإعطاء صورة للبيئة السياسية التي نمت فيها موهبة عبدالعزيز السياسية.. واكتسب من خلالها الحنكة والخبرة التي أهلته لأن يقود بلاده - فيما بعد - بحكمة الرّيان الماهر، في بحر لجّيّ.. ثم أخيراً الأحوال التي كانت سائدة في الكويت، وقت خروج عبدالعزيز لاسترداد الرياض .

فعقب معركة الصريف، قام ابن رشيد بمعاقبة القبائل والبلدان التي وقفت ضده في تلك المعركة(٦٩) ثم تحرك نحو الكويت.. لكن الدولة العثمانية طلبت منه ألا يندفع في هجومه على الكويت، مخافة أن يجرها ذلك للصدام مع بريطانيا.. فاتجه لوالي البصرة مطالباً الدولة العثمانية بإطلاق يده في الكويت، وذلك في أواخر عام ١٣١٨هـ (أبريل ١٩٠١م)(٧٠).

و إنه نتيجة لتهاون الدولة العثمانية، وعدم مسارعتها في تلبية رغبات ابن رشيد فكر في عدم الاعتماد عليها وقام بإرسال مندوب من قبله في صفر سنة ١٣١٩هـ (يونيه ١٩٠١م) لقنصل بريطانيا في البصرة، في محاولة منه لجعل بريطانيا ترفع حمايتها عن مبارك.. فكانت النتيجة أن حاولت بريطانيا التوفيق بين الخصمين، بغرض كسب صداقتهما معاً، فأوفدت في ربيع الثاني عام ١٣١٩هـ (أغسطس ١٩٠١م) لمبارك من يبحث معه هذا الموضوع.. فأبدى مبارك ترحيبه بذلك، على أن يتولى الوساطة بينهما الشيخ خزعل

---

(٦٩) قام ابن رشيد بقتل المئات من أهل بريدة وعنيزة، وكذا من أهل الرياض والقبائل التي وقفت ضده في معركة الصريف، انظر - تاريخ ملوك آل سعود - للأمير سعود بن هذلول، ص ٥٦، وتحفة المستفيد - للأحسائي ص ١٩٤.

(٧٠) خالد السعدون - المصدر السابق - ص ٥٧.

حاكم المحمرة[٧١] لكن الدولة العثمانية، التي تسرب إليها هذا النبأ، ضغطت على ابن رشيد لتثنيه عن هذا الصلح.. فاستجاب لها[٧٢]...

وإزاء إلحاح ابن رشيد على الدولة العثمانية، لعمل أي شيء ضد مبارك.. لوّحت الدولة لمبارك باستعمال القوة.. وحشدت بعض قواتها في البصرة، وأرسلت في جمادى الأولى سنة ١٣١٩هـ (أواخر أغسطس ١٩٠١م) موفداً من قبلها، على ظهر إحدى السفن الحربية يحمل تعليمات: بإقامة دار للعوائد، ومكتب للبريد، كأدلة عينية لسيادة تركيا على الكويت.. فصدرت التعليمات البريطانية لقائد السفينة (بيرسيوس) بمنع نزول أية قوات بالكويت، وقد احتج كل من السفير العثماني، والألماني في لندن على تصرفات قائد السفينة.. لكن بريطانيا ردت بأن الوضع ينبغي أن يظل كما هو عليه.[٧٣]

قرر ابن رشيد الاعتماد على نفسه، فحشد قواته بالقرب من الجهراء بالكويت، في جمادى الآخرة سنة ١٣١٩هـ (سبتمبر عام ١٩٠١م) وأغار على بعض اتباع مبارك من الرشايدة، في الصبيحية، وأشيع أنه يود مهاجمة الكويت، فاستعد مبارك للخروج له في الجهراء.. ثم أقبلت بعض السفن البريطانية، وصدرت لها التعليمات بالتصدي لابن رشيد، إذا حاول الهجوم على الكويت.. وأطلقت إحداها بعض الطلقات النارية، فأضاءت السماء ليلاً،

---

(٧١) المحمّرة: عاصمة إمارة عربية كانت تقع على الضفة اليسرى لشط العرب، وتحتل المساحة من جنوب البصرة إلى رأس الخليج العربي، وكانت تعد ضمن أراضي العراق قديماً، وقد ضمتها إيران إليها قبل أكثر من نصف قرن- أي عقب الحرب العالمية الأولى- بتواطؤ من السلطات البريطانية في ذاك الوقت، والتي كانت ترتبط بعلاقات تعاهدية مع تلك الإمارة.

(٧٢) خالد السعدون - المصدر السابق - ص ٥٧، ٥٨.

(٧٣) ج. ج. لوريمر - المصدر السابق - القسم التاريخي، ج٣، ص ١٥٤٢، وخالد السعدون - المصدر السابق - ص ٥٩ - وعبدالعزيز الرشيد - المصدر السابق ص ١٦٧.

فأحجم ابن رشيد عن الإقدام، واكتفى ببعض الغارات التي شنها على الأفراد والقوافل التجارية.. وبعض العشائر التابعة لمبارك.. وأرسلت بريطانيا تحذيراً للدولة العثمانية، عن مدى خطورة تحركات ابن رشيد، وتفاقم الوضع نتيجة تلك التصرفات.. وضرورة احترام الوضع القائم في الكويت[٧٤] .. وقد احتج مبارك أيضاً لدى والي البصرة على تصرفات ابن رشيد. وقيل إن عبدالعزيز طلب من مبارك أن يأذن له بالخروج لملاقاة ابن رشيد في الجهراء.. لكن مبارك» لم يأذن له[٧٥].... ويبدو أن بريطانيا نصحت مبارك» بالتزام الهدوء.. وألا يلجأ لاستعمال القوة وسط الجزيرة.. بعيداً عن مدى الأسطول البريطاني.. لكن يبدو أن مباركاً عاد وأذن لعبدالعزيز بالخروج في هذا الوقت. وهو ما تؤيده الأحداث المقبلة.

أوفدت الدولة العثمانية، في رجب سنة ١٣١٩هـ (اكتوبر ١٩٠١م) نقيب البصرة لمبارك، لمطالبته بإعلان الخضوع للدولة العثمانية... وتحذيره من مغبة التهور.. فأخبره مبارك بولائه للدولة.. غير أن الدولة أرسلت إليه بعد أسبوعين، في شعبان سنة ١٣١٩هـ (نوفمبر ١٩٠١م) على ظهر السفينة الحربية (زحاف) من حمل إليه تعليمات الدولة العثمانية، بتخييره بواحدٍ من ثلاثة أمور: إما قبول حامية تركية مقيمة بالكويت.. أو أن يرحل إلى استانبول للإقامة بها، ويكون ضمن أعضاء مجلس شورى الدولة.. أو يختار أي مكان آخر يرحل إليه.. ووصلت السفينة البريطانية (سفنكس) وأعلن قائدها لمبعوثي الدولة العثمانية.. أن بريطانيا لن تسمح بتغيير الوضع الحالي في الكويت.. ولن تسمح

---

(٧٤) ج.ج. لوريمر - المصدر السابق - ج٣، ص ١٥٤٣ - وخالد السعدون - المصدر السابق - ص ٥٩، والرشيد - المصدر السابق ص ١٦٩، ١٧٠، أما الجهراء والصبيحة، فالأولى شمال الكويت (العاصمة) بمسافة ٢٠ ميلاً، والثانية جنوبها بمسافة ١٨ ميلاً تقريباً..

(٧٥) ج. ج. لوريمر - المصدر السابق - القسم التاريخي - ج٣، ص ١٥٤٤، وخالد السعدون - المصدر السابق - ص ٦٠، ٦١، والرشيد - المصدر السابق ص١٧٠.

بأي عمل ضد الكويت.. وانسحبت السفينة التركية على حين انضمت سفينتان أخريان للسفينة البريطانية الأولى(٧٦) .. ويبدو أن بريطانيا كانت تحس بأن ألمانيا تلعب في الخفاء لإثارة هذه المتاعب فتصدت لها.

و في رمضان سنة ١٣١٩هـ (ديسمبر ١٩٠١م) كان ابن رشيد في الحفر بالقرب من البصرة، يتلقى إمدادات كبيرة من الدولة العثمانية.. ومعونة مالية سخية، بغرض تجهيز حملة كبيرة مشتركة فيما بينهما لمهاجمة الكويت.. وأحست بريطانيا بما يدبر.. فأسرعت بتقديم مساعدة لمبارك لتحصين قلعة الشيخ في الجهراء.. وأصدرت تعليماتها لخمس سفن حربية بملازمة شواطىء الكويت تحسباً لصدّ أي هجوم مرتقب(٧٧) وأقام مبارك في الجهراء بعد تحصينها.

من خلال هذا العرض السريع.. الذي يبين مدى ما كانت تواجهه الكويت من صراع دولي.. ومن ظروف صعبة تمر بها.. ومناورات سياسية على مستوى عالٍ.. وعلى ضوء ما سبق، نرى أن هناك قضية تستحق المناقشة، لأنها أصبحت من الأمور المسلم بها لدى كثير من المؤرخين القائلين بها.. وهي:

- إن البعض من المؤرخين يلوم مبارك» بسبب تردده في الإذن لعبد العزيز بالخروج للغزو، أو التحرك نحو الرياض.. وأنه عندما أذن له بذلك.. أعطاه أربعين ذلولاً عجفاء، وثلاثين بندقية.. ومائتي ريال.. ولم يزوده بالرجال. والمنطق والعقل السليم يقول: ماذا تنتظر من رجل بلده محاطة بالأخطار من كل جانب.. ومهددة بالهجوم عليها في أي وقت.. فهل من الأفضل له أن

---

(٧٦) ج. ج. لوريمر - المصدر السابق - القسم التاريخي - ج٣، ص ١٥٤٦، وخالد السعدون - المصدر السابق - ص ٦١.

(٧٧) ج. ج. لوريمر - المصدر السابق - القسم التاريخي - ج٣، ص ١٥٤٩.

يعمل كل ما في وسعه من استحكامات... ويهيء نفسه بكل قوته للدفاع عن بلده، وصدّ أي هجوم متوقع.. أم يُعدّ جيشاً يحارب به خارج بلده.. حتى إذا ما هاجمها مهاجم لا تجد فيها من الرجال من يرد الهجوم؟!. فإن قيل لو جهزه بجيش قليل.. وأبقى الأكثر للدفاع عن الكويت.. وبحيث يتحرك عبدالعزيز ويشاغل ابن رشيد بجيش قليل.. كما فعل يوم الصريف.. أجيب بأن الوضع مختلف تماماً.. فليس هو الآن أمام معركة مواجهة.. لها وقت ومكان.. وإنما تهديد متوالٍ.. إضافة لأنه تلقى تحذيراً من الدولة العثمانية.. ومن بريطانيا أيضاً بعدم التهور والاندفاع فيما يؤدي لصدام في الصحراء.. وربما لهذا السبب سمح لعبدالعزيز، بعد تردد، أن يغزو فقط.. أي أن يغير على بعض القبائل الموالية لابن رشيد.. بحيث يدخل فيها الرّعب والفزع.. ويظهر هو أمام الدولتين العثمانية والبريطانية، بأنه على وعده. وأنه لم يُقْدم على شيء يثير به المتاعب، أو حتى يساعد على ما يخلق المتاعب في المنطقة.. فأما عبد العزيز فهو وإن كان هو وأبوه وأهله في ضيافته، لكنهم ليسوا من أهل الكويت، وإنما من نجد... وهم مسئولون عن تصرفاتهم.. ولا يستطيع منعهم من الخروج من الكويت.. أو العودة لنجد.. هذا فيما لو سئل عن خروج عبدالعزيز ..ولهذا السبب أيضاً لم يرسل مع عبدالعزيز أحداً من أهل الكويت.. أليس هذا ما يقبله العقل من موقف مبارك؟.. وله العذر.. كل العذر في موقفه.. فلا ينبغي أن يوجه إليه لوم.. أو يتهم بأنه قصر.. بل أكثر من هذا فقد أذن لعبدالعزيز في الخروج في الوقت الذي تلقى فيه إنذاراً من الدولة العثمانية تخيره بين ثلاثة أمور.. وأحلاها أمر من المر.. لذا أراد ألا يظهر في صورة من دفع عبدالعزيز للخروج.. أو حتى ساعده عليه..

ولمَ نذهب بعيداً؟.. ونجهد العقل.. وهناك رواية تقول: بأن عبدالعزيز عرف مسبقاً، أنه لو أطْلع مبارك» على فكرة استرداد الرياض فلن يوافق على

خروجه بأي حالٍ، ولذا طلب منه أن يأذن له في الغزو فقط.. أي إحداث بعض الغارات على القبائل الموالية لابن رشيد.. ولهذا أيضاً أمده بأربعين ذلولاً.. وثلاثين بندقية.. أي مجرد عتاد يؤدي الغرض من المهمة.. وأن عبدالعزيز أخفى غرضه الأساس عن الجميع، فيما عدا والده، ولم يبح به إلا في حينه[٧٨].. وهي مقولة مقبولة عقلاً ومنطقاً، وتؤيدها الحوادث والوقائع..

ومن هذا القبيل أيضاً مقولة بأن مبارك» هو الذي رسم لعبدالعزيز خطة استيلائه على الرياض[٧٩] وهي مقولة بعيدة عن الصواب إلى حد كبير.. ولا يؤيدها العقل والوقائع بل تحتاج إلى أدلة.. ذلك لأنه كيف يرسم له خطة ويطلب منه تنفيذها.. ولا يجهزه بقوة تكفي لتنفيذ تلك الخطة.. ومواجهة أية احتمالات يقوم بها الخصم؟.. وهو يعلم مسبقاً مقدار قوة ذلك الخصم. بالإضافة إلى أن الظروف التي كانت تمر بها الكويت جعلته يتردد في إعطاء الإذن.. ولو علم بأن الغرض هو التحرك نحو الرياض لما وافق؛ لأن ذلك سيجلب إليه المتاعب، ولهذا عندما أرسلت إليه الدولة العثمانية للعمل على إيقاف تحركات عبدالعزيز في نجد.. أرسل إليه، أو بالأحرى جعل والده يكتب إليه رسالة يطالبه فيها بالعودة للكويت.. وكان عبدالعزيز وقتها في واحة يبرين هو ورجاله.. ثم لا ينبغي أن ننسى أنها كانت مبادرة - أساساً - من عبدالعزيز خاطب فيها والده أكثر من مرة، حتى أقنعه، ثم وسطه لإقناع مبارك، في مجرد الخروج للغزو.. فإن قيل: فلماذا لم يبادر بها من قبل؟.. ولم اختار هذا الوقت بالذات لتنفيذها؟.. قلنا: إن أمر الخروج لم يكن بيده، حتى يخرج في أي وقت يشاء، وإنما كان بيد غيره.. ولذا لم يخرج حتى أُذن له فيه.. ولو لم

---

(٧٨) المانع - المصدر السابق ص ٤٣.

(٧٩) الرشيد - المصدر السابق - ص ١٧٢ - وحسين خلف الشيخ خزعل - تاريخ الكويت السياسي - ج٢، ص ١٧٣

يكرر طلب الإذن في هذا الوقت بالذات الذي تتوالى فيه تهديدات ابن رشيد، لما كان هناك إذن ولا خروج.. لأنه كان قد طلبه أكثر من مرة، من والده أولاً فلم يأذن له، فعاود المطالبة حتى استطاع إقناع والده، ثم وسطه لإقناع مبارك.. وربما يكون قد تحايل بفكرة مجرد الخروج للغزو فقط كنوع من التهديد لابن رشيد، وللقبائل الموالية له.. ولهذا أعطي من الأسلحة والعتاد ما يكفي لأداء المهمة.. ولا يتجاوزها.. وهذا ما يقبله العقل المتأمل، وتؤيده الأحداث كما أشرنا.. إذن فالفكرة، والتخطيط، والتنفيذ كلها من عمل عبدالعزيز، وليس من أحد سواه.. فإن قيل فلم استجاب مبارك في هذا الوقت بالذات للإذن بالخروج؟.. نقول: إن الظروف التي سنذكرها فيما يأتي- بالإضافة لما سبق- هي التي هيأت وساعدت في إصدار الإذن بالخروج. بينما منعت من صدوره قبل..

ومن الإنصاف أن نذكر أن الشيخ مبارك عندما وافاه نبأ تمكن عبد العزيز من استرداد الرياض سارع بإمداده بمائتي رجل وثلاثمائة بندقية مع أخيه سعد ابن عبد الرحمن الفيصل، فكأنه نبأ سار فوجيء به.. فسارع بتدعيمه بما تيسر، وكان معظم هؤلاء المرافقين لعبدالعزيز- إن لم يكن كلهم- من أهل نجد المقيمين بالكويت.. وهي قوة لا يمكن أن تقارن بما كان قد أعده مبارك من قبل لمعركة الصريف.. بالإضافة إلى أن الغرض مختلف في كلا الموقفين، فالغرض في الصريف كان التغلب على ابن رشيد، أو القضاء عليه، ومن ثمَّ الاستيلاء على جزء من الصحراء الممتدة أمام الكويت لتحكم باسم مبارك..

أما هنا فالغرض مشاغلة ابن رشيد، أو كسر شوكته بمساعدة من يسترد ملك آبائه إن استطاع، وبالتالي يحكمه باسمه، وليس باسم مبارك.. إذن

فالحماس أقل كثيراً هنا عما كان هناك.. ولذا كان الدعم مقارياً للحماس.. وفـي مستواه.

الفصل الثالث

بداية الخطى على درب الانتصارات

- استرداد الرياض
- الإذن بالخروج، وخطة التحرك
- مدينة الرياض ذاك الوقت
- ما حقيقة عدد رفقاء الطريق ؟
- نص مروي على لسان الملك عبد العزيز

استرداد الرياض

إن استعمال كلمة فتح» يرتبط مدلولها التاريخي في أذهاننا، بخضوع البلدان والمدن للحكم الإسلامي، إبان انتشاره، في عصوره الأولى، كفتح الشام، وفتح مصر وفتح بلاد فارس، وفتح الأندلس وغيرها.. بمعنى أن الإسلام دخل تلك البلدان لأول مرة، وأن أهلها كانوا غير مسلمين، وليس الحال هنا كذلك، فالوضع يختلف اختلافاً بيِّناً، فالأرض أرض الإسلام منذ بزوغ فجره، وأهلها مسلمون.. ولهذا فإن استعمال كلمة فتح» استعمال في غير موضعه، ومن الأنسب للمقام استعمال كلمة استرداد» بدل كلمة فتح»..سواء أكان ذلك بالنسبة لمدينة الرياض، أم لغيرها من المدن والمناطق.. فضلاً عما توحيه كلمة استرد من دلالة على أن شيئاً ما كان قد فُقِدَ أو انتزع، ثم استرده صاحبه.. وهو واقع الحال بالنسبة لما صنعه عبد العزيز.. ولذا فإن البعض يسيىء - بدون قصد - أو يخطىء التعبير، عندما يعنون الموضوع: فتح الرياض، أو الحجاز مثلاً.. وأشد إساءة، عندما يقول: فتح مكة، ذلك لأن فتحها، هو الفتح الأول الذي تم على يد الرسول ﷺ، والذي ليس بعده فتح..

وأيّاً كان فإن عبارة فتح الرياض هي الأشهر استعمالاً وترددا على ألسنة المثقفين والعامة على السواء.. وقد استعضنا عن ذلك باختيار طليعة هذا اليوم المشهود.. وهو فجر ذلك اليوم ليكون عنواناً لهذه الدراسة- تفاؤلاً واستبشاراً ببزوغ شمسه على البلاد، واستمراره إلى ما شاء الله، وهو اقتراح موفق من سعادة الدكتور فهد بن عبدالله السماري، الأمين العام لدارة الملك عبدالعزيز.

ونعود إلى موضوع استرداد الرياض» وهو الموضوع الذي ما رأينا مؤرخاً أو كاتباً تناول تاريخ عبد العزيز، إلا وقف أمامه وقفة إعجاب وانبهار.. للأسلوب البارع الذي استعمله عبد العزيز في زحفه على الرياض، وطريقة التمويه

والخداع للخصم، مما يكشف عن عبقرية فذة ومبكرة للنواحي الحربية في شخصية عبدالعزيز، وما اتسمت به من شجاعة وإقدام، وإصرار وقوة عزيمة، وحسن تدبير، وبُعْد نظر..

يظهر ذلك كله مما يتداعى إلى الذهن والخاطر من تساؤلات تدور حول الموضوع.. كيف قرر الخروج من الكويت بهذا العدد الضئيل من أهله وأنصاره؟ وكيف خطط لوجهة سيره في صحاري وأرض مكشوفة، يستغرق السير فيها أياماً عديدة على ظهور الخيل والإبل حتى يصل إلى غايته؟.. وكيف ينفذ إلى تلك الغاية، أو يفلت من الأعين التي تراقب الطرق، وتحركات القوافل والرواحل من هنا وهناك؟.. ثم ماذا لو تناهى لأسماع خصمه نبأ هذا الزحف، فيجد نفسه فجأة وجهاً لوجه أمام خصم أكثر منه عدداً وعدة؟.. وحتى لو استطاع التمويه ونجح في الوصول إلى الرياض، فمن يدريه أن يقتحمها بسهولة؟.. أو يتغلب على قائد حاميتها الجديد، عجلان بن محمد العجلان.. إنه بلا ريب سيكون أشد حرصاً وحذراً من سابقه، حتى لا يؤخذ على غرة كما أخذ ذاك.. فقلما تتاح الفرص لأربابها مرتين متعاقبتين.. وعلى فرض النجاح في كل هذا.. فكيف يواجه ابن رشيد بما يملك من قوات جرارة، استطاع بها التغلب على جيش مبارك في الصريف.. وازداد بعد ذلك قوة وعتاداً، وثقة وشهرة؟.. بل لا يوجد الآن ما يشغله عن مواجهة عبدالعزيز، كما هو الحال في المرة السابقة.. حين كانت مواجهته لمبارك هي الأساس.. أما الآن فيستطيع أن يزحف إليه بهذا الجيش الكثيف، وأن يطارده وأن يطوقه، بل وَيُحكِم عليه الطوق من كل المنافذ والطرق.. فكيف قدر عبد العزيز نتيجة تلك المواجهة؟؟.. وكل الدلائل والمؤشرات توحي بأن قرار الخروج بهذا الشكل ليس في صالحه.. وأن إقدامه على الزحف بمجموعة قليلة من الرجال، مهما كانوا مخلصين له، فيه الكثير من المغامرة، والمغامرات قد تكون محمودة العواقب إذا أعمل فيها الفكر والتدبير.. وقد تكون سيئة

النتائج إذا غاب عنها الفكر والتدبير المحكم، فالرجل الذي شاهد غريقاً وسط البحر، يصيح طلباً للنجاة، فاندفع إلى الماء، مع أنه لا يجيد السباحة، فغرق هو الآخر، لا يمكن أن يقال عنه: إنه شجاع.. وإنما متهور.. أما الذي فكر وأتى بقارب عائم من المطاط مثلاً، ودفعه في البحر، وأمسك به، لأنه لا يجيد السباحة أيضاً، وظل يدفعه أمامه حتى أمسك به الغريق، فأنقذه، وأنقذ نفسه أيضاً، فهذا هو الشجاع الحكيم.. والحياة مليئة بأمثلة من هذا النوع..

وإن الإجابة عن تلك التساؤلات تظهر من خلال العرض لمجريات الوقائع وسير الحوادث التي سنقف عليها فيما بعد.. وهي في مجملها تفيد بأن عبد العزيز قد أعمل الفكر والتدبير في كل هذا.. بدليل نجاحه في هذا الموقف، وفي غيره من المواقف؛ ذلك لأن المصادفات لا تتكرر أو بالأحرى لا تتعاقب.، وهي إن اقترنت ببعض الأعمال العادية أحياناً.. فهي نادرة الاقتران بالأعمال الحربية بصفة خاصة، إن لم تكن معدومة في هذا المجال.. واقرأوا إن شئتم تاريخ الحروب.. منذ فجر الإسلام حتى العصر الحديث.. ترون أنها تعتمد أول ما تعتمد على الذكاء في حسن التخطيط، وبراعة التنفيذ؛ ولذلك قال الرسول ﷺ الحرب خُدعة[٨٠]..وكان يولّي أدرى الصحابة.. وأقدرهم في الحرب زمام الأمر، وقيادة الجيش، وفي الصفوف من هو أسبق منه إسلاماً.. وأكبر سناً.. وكذلك فعل الخلفاء الراشدون.. رضي الله عنهم..

إذاً إصرار عبد العزيز على الخروج بتلك القلة القليلة، توحي بأنه دبر الأمر ورتبه من كل النواحي.. بل توحي بأنه قد فضل الخروج بتلك القلة القليلة، لكي يكون سريع الحركة والوثب، والكر والفر، فيما لو واجهته قوات

---

(٨٠) أورده في سننه النسائي وابن ماجه.

ابن رشيد، وأنها ستكون أخف عبئا في التمويل، وأسرع استجابة للتمويه والخداع عن الغاية المقصودة، من جيش كثير العدد والعدة، والرواحل والأثقال.. إضافة لكونه سيكتشف بها رد الفعل لدى ابن رشيد؛ ولذلك كان كل همه أن يحصل على الإذن بالخروج للغزو فقط، ولم يقترن طلبه هذا بما يحتاجه من عدة وعتاد.. بل اكتفى بما قدمه إليه الشيخ مبارك، وأسرع بالخروج.. ويستنتج العقل من هذا أيضا أنه لم يطلع مبارك» على ما يدور في ذهنه من استرداد الرياض..

ثم أليس من إعمال الفكر والتدبير، أنه بدا وقت خروجه في صورة مجموعة من الفرسان تبغي الإغارة والغزو فقط؟.. وليس الاستيلاء على موقع ثابت، ثم الدفاع عنه، وعدم التخلي عنه تحت أي ظرف من الظروف؟.ومما يدل على أنه دبر الأمر وأحكمه أنه اتفق مع عبدالله بن ناصر العبيكان، من أبرز عائلات الرياض، وكان يعمل في تجارة السلاح على نطاق واسع بين بلدان الخليج، قابله في الكويت واتفق معه على شراء أكبر كمية من السلاح، يكون بمقدوره شراؤها، وإرسالها إليه في الرياض بمجرد سماعه بالاستيلاء عليها،. وقد كان حيث وصلته تلك الأسلحة من عمان قبل لقائه بابن رشيد[٨١].... ثم عقب استيلائه على الرياض، وقبل قدوم ابن رشيد إليه، وصله بعد أربعة أيام مائة ذلول من أهل حوطة بني تميم.. وثلاثون ذلولاً من محماس الهزاني، ثم أقبل إليه أخوه سعد بن عبد الرحمن، بمائتين من الرجال وثلاثمائة بندقية.. ووصله

---

(٨١) انظر: أحمد بن مساعد الوشمي، الرياض مدينة وسكاناً، ص٨٤ حيث قال إن ابني ناصر العبيكان عبدالله وعبدالرحمن، كانا من أوائل من خرج من أهل الرياض للعمل في التجارة بين الهند ودول الخليج، ثم تخصص عبدالله في تجارة السلاح التي كان لها شأن في ذاك الوقت.

أهل العارض الذين كانوا قد رحلوا إلى البحرين، وعددهم سبعمائة رجل[٨٢] ثم انهمر عليه الغيث من كل جانب.. وفيما يرويه فؤاد حمزة على لسان الملك عبدالعزيز، قوله: سمع بنا أهل نجد.. القريبون جاءونا والبعيدون جاءنا منهم أناس»[٨٣] أقبل إليه هؤلاء.. والموقف بينه وبين ابن رشيد لم يتحدد بعد.. والمواجهة بينهما وشيكة الوقوع.. والمقاييس بكل أنواعها ترجح كفة ابن رشيد.. ومع ذلك فقد أقبل هؤلاء ليكونوا بجوار عبدالعزيز، وفي طليعة الصامدين في وجه ابن رشيد.. لم ترهبهم قوته وسطوته بل طغى على ذلك كله إعجابهم بشجاعة عبد العزيز، وحسن تدبيره. والناس دائما بذوي الشجاعة معجبون..

الإذن بالخروج .. وخطة التحرك

تلقى عبد العزيز الإذن بالخروج من والده في جمادى الآخرة عام ١٣١٩هـ (سبتمبر عام ١٩٠١م) بعد ستة أشهر تقريبا قضاها في الكويت، منذ عودته من الرياض عقب موقعة الصريف.. وكان مبارك وقتها في الجهراء[٨٤] وابن رشيد ابتعد عن الكويت بعد أن هم بمهاجمتها، نتيجة إحساسه بما رتبه مبارك من دفاعات واستحكامات، وإقبال سعدون رئيس المنتفق لمؤازرة مبارك، ووجود السفن البريطانية بالقرب من شواطىء الكويت، فابتعد ابن

---

(٨٢) هذه المعلومات وردت أيضا في حديث الذكريات الخاصة بالأمير سلمان بن محمد آل سعود، السابق الإشارة إليه.

(٨٣) فؤاد حمزة، البلاد العربية السعودية - ص ٢٤.

(٨٤) الجهرة: تبعد عن مدينة الكويت (العاصمة) بحوالي عشرين ميلا، وتعتبر المركز الرئيس للزراعة في الكويت.

رشيد وعسكر على ماء الحفر[٨٥] الذي ظل مقيما عليه لفترة طويلة، قيل: أربعة أشهر، في انتظار ما تمده به الدولة العثمانية من أسلحة وعتاد، وعندما بلغه خبر خروج عبد العزيز، وهو في معسكره هذا، لم يحرك ساكنا، ولم يوله أو يعره اهتماما، لأن كل همه كان منصبا على الكويت، وهو في انتظار أسلحة وعتاد تمكنه من ذلك[٨٦] .. ظنا أن عبد العزيز مهما تحرك وتجول فهو في متناول يده.. في أي وقت يشاء، ولا شك أن هذا نوع من الثقة الذي بلغ منتهاه، حتى وصل إلى درجة الغرور.. وبين الثقة والغرور شعرة لا يدركها إلا الحصيف، والغرور يقتل صاحبه.. وقد كان..

أما مبارك فكان قد تلقى، في ذاك الوقت، خطابا من والي البصرة مصطفى نوري باشا، ردا على خطابه الذي أرسله إليه من قبل، يشكو فيه ابن رشيد، ومحاولاته الهجوم على الكويت، وكان خطاب والي البصرة مطمئنا لمبارك، ويفيده فيه بأن الدولة غير راضية عن تصرفات ابن رشيد ضد الكويت.. ولذا فإنها بادرت بطرد رجاله من البصرة[٨٧] ومع أن الوالي كان يخادع مبارك» بهذا الخطاب، لأن الدولة أقدمت فيما بعد بنفسها على تهديد مبارك، لكن المهم أن الخطاب في ظاهره يوحي بالاطمئنان نوعا ما.. وغالب الظن أن هذا الاطمئنان، هو أحد الدوافع للإذن بالخروج، في هذا الوقت بالذات..

---

(٨٥) الحفر: ماء على الطريق الممتد من القصيم وجبل شمر إلى الكويت - والبصرة، على مسافة ١٦٠ ميلاً تقريباً من مدينة الكويت.

(٨٦) الزركلي - المصدر السابق - ص١٢٦.

(٨٧) الرشيد - المصدر السابق - ص١٧٠، ولوريمر - المصدر السابق - ص١٥٤٤.

المهم أن عبد العزيز عقب تلقيه الإذن بالخروج، أسرع يخبر بعض إخوانه وأتباعه، وتواعدوا على اللقاء بعد يومين، في مكان حدّدوه خارج بلدة الكويت، بعد أن يتهيأ كل منهم، ويودع أهله، ويتجهز للرحيل.. ويقال إن عبد العزيز حين كان يودع والده، طلب منه أن يدعو له، أما أمه فقد تشبثت به، تحاول أن تثنيه عن عزمه، لكن أخته نورة حالت بينه وبين أمه، وشجعته على الخروج، فقد كانت على شاكلته تموج بالهمّة والطموح.. وكان عبد العزيز يجلّها ويقدرها، وكان ينتخي بها في الحرب ومواطن الهول: أنا أخو نورة.. أنا أخو الأنور.. ومع أن أمه كانت قد قامت من قبل- تحت إلحاحه- بالوساطة لدى والده ليسمح له بالخروج- كما روى ذلك الزركلي[٨٨]- لكنها عند الوداع لم تملك نفسها من التشبث به.. خوفا وتلهفا عليه من أن يصاب بمكروه.. إنها عاطفة الأمومة.. وحنانها الذي يفيض بلا حدود على الصغار والكبار من الأبناء، حتى لو أصبحوا في سن الرجولة..

وعقب الوداع تسلل عبد العزيز من منزل العائلة قرب الميناء، سالكا الأزقة المتعرجة التي تؤدي إلى السوق الكبير، ثم إلى المكان المحدد للقاء، حيث كانت الإبل في انتظارهم مع بعض الرجال والخدم، وانطلقوا جميعا وغابوا في ظلمة الليل، إلى حيث الصحراء الواسعة[٨٩].

واختلف في عدد الرجال وقت الخروج من الكويت.. هل هم أربعون، أو أقل أو أكثر؟.. وهي نقطة وإن كانت جديرة بالاهتمام، للاستفادة منها في الاستنتاج والتحليل لبعض القضايا، لكنها لا ترقى في الأهمية إلى مستوى

---

(٨٨) الزركلي - المصدر السابق - ص٧٨، وارمسترنج - المصدر السابق - تحت الطبع، وقد عاشت نورة حتى توفيت بعد استرداد الرياض بخمسين عاما تقريبا.

(٨٩) هـ. س. ارمسترنج - المصدر السابق.

النقطة المطلوب تحقيقها لعددهم، وقت استرداد الرياض.. فالفارق ليس كبيرا.. وحتى لو تضاعف العدد، فهو أقل من أن يناط به احتلال موقع أيا كان، والدفاع عنه.. ثم إن العدد الذي خرج من الكويت انضمت إليه أعداد غفيرة، خلال التحركات، حتى وصل عددهم ألفا وأربعمائة[٩٠] أو يزيدون قليلا.. واستمروا معه فترة، ثم انفضوا عنه، ولم يبق معه سوى العدد الذي خرج معه من البداية، وبقية مخلصة أخرى انضمت إليه أثناء المسيرة.. إذا فهؤلاء الذين واصلوا المسيرة، وشاركوا في الاسترداد.. وحملوا أرواحهم على أكفهم ليلة المصمك.. هم المعنيون بالبحث والتقصي.. وسنذكرهم فيما بعد..

وبنظرة متأنية وفاحصة لخطة السير، نجد أن عبد العزيز استعمل فيها أسلوب التمويه والخداع ببراعة.. حيث لم يخرج من الكويت، ويذهب مباشرة إلى الرياض، كما فعل في المرة السابقة، وقت الصريف، وإنما سلك طريقا يوهم به الأعين التي قد تراقبه، أنه ربما يقصد أي شيء، فيما عدا الرياض.

فلقد اتجه جنوبا، وكان حذرا في سيره، يبتعد عن الطرق المألوفة للعابرين قدر استطاعته، يسير الليل، ويستريح النهار، يضرب خيامه عند الاستراحة في منخفض تحت الأفق، حتى لا يظهر منها شيء على مدى البصر، وغالبا ما كان يتخذ من الكثبان والتلال ستارا يقيه، هو ورفقاءه، من أعين الرقباء، عند الاستراحة، ينام كل منهم ويده على مقود بعيره، ويده الأخرى على سلاحه، وكان يكفي عبد العزيز إغفاءة يسيرة يعود بعدها موفور النشاط[٩١] وظل حريصا على التخفي في سيره، حتى اجتاز صحراء الصمان، وهو متجه نحو الجنوب الغربي، إلى أن أصبح في محاذاة الأحساء، وبدأ

---

(٩٠) أمين الريحاني - المصدر السابق - ص١٢٢.

(٩١) س. هـ. ارمسترنج - المصدر السابق - الفصل الحادي عشر.

يغزو، وذاع الخبر بأن ابن سعود يغزو، فالتف حوله طلاب الغزو، وراغبو الكسب والغنائم.. وانضم إليه بعض العجمان، وآل مرة، وسبيع، والسهول، حتى بلغ عدد الملتفين حوله ألف راكب ذلول، وأربعمائة فارس[(٩٢)] وبدأ يغير على القبائل الموالية لابن رشيد، فأغار على أبيات لقحطان، وعاد بما غنمه إلى أطراف الحسا، وكان بها متصرف» من قبل الدولة العثمانية[(٩٣)] فقسم عبد العزيز الغنائم على من معه، وبعد أن استراح قليلا وتمون، انطلق مرة أخرى بمن معه متوغلا أكثر في منطقة نجد، وهاجم جماعة أخرى من عرب العاصم من قحطان، في عشيرة[(٩٤)] بمنطقة سدير، فغنم وربح.. وبعد مدة يسيرة هاجم فريقا آخر من مطير، وساق بعض مواشيهم أمامه إلى أطراف الحسا[(٩٥)] التي كان قد اتخذها مركزا لتموينه، ومستقرا لراحته، فقسم الغنائم على من معه، وأعطى الأسلاب لأربابها، فليس له مأرب في الغنائم، إلا بالقدر الذي يكفيه، ويعينه على مواصلة بلوغ هدفه الذي ينشده، والذي خرج في سبيله.

---

(٩٢) أمين الريحاني - المصدر السابق ص١٢٢ - والزركلي - شبه الجزيرة في عهد الملك عبدالعزيز - ص ٨٠ وغيرهما. وعلى هذا فلا صحة لما رواه بنوا ميشان في كتابه - عبدالعزيز آل سعود سيرة بطل ومولد مملكة - ص ٧١. دار الكاتب العربي بيروت ١٩٦٥م من أن القبائل النجدية لم تتحرك للانضمام إليه، وما قاله من أن عبدالعزيز غزا العجمان. وغير ذلك من روايات لا سند لها تاريخيا..

(٩٣) كان حاكم الحسا في ذاك الوقت من قبل الدولة العثمانية هو: موسى كاظم، كما ذكر ذلك صاحب تحفة المستفيد، ص١٨٠، عند ذكره لولاة الأحساء في عهد الدولة العثمانية.

(٩٤) عشيرة: إحدى بلدان منطقة سدير بالقرب من بلدتي التويم وجلاجل.

(٩٥) سعود بن هذلول - المصدر السابق - ص ٥٩، والزركلي - الوجيز، ص ٢٤ - وأمين الريحاني - المصدر السابق - ص ١٢٢.

لا شك أن عبد العزيز حتى هذه اللحظة كان في انتظار رد الفعل من خصومه، نتيجة لتلك التحركات والغارات، وكان حريصا على معرفة أثر ذلك على موقف ابن رشيد.. فما هو أثر ذلك لدى ابن رشيد...؟

لقد ذاع الخبر وشاع، بأن ابن سعود يغزو.. وطارت الأنباء إلى ابن رشيد، وهو على الحفر، تحمل إليه أخبار خروج عبد العزيز، وتفاصيل تحركاته، فأظهر في بادىء الأمر أنه لا يأبه بألاعيب هذا الفتى[٩٦].. وأنه لا يعيره التفاتا، مبينا لمن حوله، أن بمقدروه القضاء عليه وقتما يشاء.. وبلغت الثقة لديه حد الغرور والكبرياء.. حتى بلغت منتهاها، حين تناهى إليه خبر استرداد عبد العزيز للرياض، وشروعه في تحصينها، وبناء ما تهدم من سورها، فقال: دعوهم يبنون حتى يشبعوا، فسوف نهدم ما بنوه في لحظة واحدة[٩٧].. .. فهل كان ابن رشيد غرا أو ثملا لا يستطيع أن يزن الأمور لهذه الدرجة..؟ والواقع أن ابن رشيد لم يكن سهلا، أو ساذجا.. وإنما هو بالتأكيد قد أعمل فكره وتقديراته، فوجد أنه من الأفضل له الاستمرار، في موقعه على الحفر، في انتظار ما تمده به الدولة العثمانية، لكي يزحف على الكويت، ويقضي على مبارك، عدوه اللدود، وعدو الدولة العثمانية في ذاك الوقت، فإذا ما أنجز هذا - وهو الأهم في نظره- انطلق إلى ابن سعود، الذي لا يملك رجالا ولا عتادا، فيقضي عليه بسهولة، واثقا من تفوقه أضعافا مضاعفة على ابن سعود.. وهذه الحسابات والتقديرات وإن كانت مقبولة إلى حد ما.. إلا أنه أخطأ فيها خطأ فادحا، في نقطتين أولاهما: تباطؤه أكثر من اللازم،

---

(٩٦) الزركلي - شبه الجزيرة - ص ٨١، وليس صحيحا ما ذهب إليه بنوميشان. ص ٧١ من أن ابن رشيد جهز قوة صغيرة حسنة التجهيز، لمطاردة عبدالعزيز حتى أخرجته من نجد.. فالصواب أن ابن رشيد أظهر عدم المبالاة من البداية، وحتى بعد أن سمع باسترداد الرياض.

(٩٧) المانع - المصدر السابق - ص ٥٢.

وتراخيه في الرد عندما بلغه خبر استرداد الرياض، فلم يتحرك وينطلق إلى الرياض إلا في ربيع أول سنة ١٣٢٠هـ، أي بعد خمسة أشهر تقريبا من استردادها، وكانت قبضة عبدالعزيز قد أصبحت محكمة عليها.. والنقطة الثانية: أنه كان يجهل كل شيء عن عبدالعزيز، وبراعته الحربية، وحسن تدبيره وتنفيذه.. وهو ما أذهله في أول لقاء بينهما في الحوطة والحريق جنوب الرياض.، وكان سبب ذلك هو الثقة البالغة في مقدرته وتفوقه، بسبب نتيجة موقعة الصريف، والنصر الذي أحرزه فيها.. والذي أكسبه الثقة وتعداها إلى الغرور.. وعندئذ هوت كفته، بينما رجحت كفة عبد العزيز.. وبهذا المقياس، وعلى ضوء الأحداث ونتائج الحروب التي وقعت بينهما، نستطيع أن نتبين عنصر الكفاءة في كل منهما.. فنرى أن عبد العزيز كان متفوقا في مجال إعمال الفكر والرأي والتدبير، والتنفيذ، تماما.. بمقدار تفوقه على ابن رشيد في الحروب التي دارت بينهما..

لقد ظهر من البداية عدم اهتمام ابن رشيد بتحركات عبد العزيز.. وكان ذلك نتيجة لتقديراته وحساباته التي أخطأ في بعضها- كما أشرنا- لكنه لم يكن ساذجا حتى يترك الأمور تسير حسبما يريدها عبد العزيز.. بل خشى استفحال أمره، وبخاصة بعد نجاحه في الغارات التي شنها على القبائل الموالية له.. فألب عليه الدولة العثمانية، حين كتب إلى والي البصرة.. ووالي بغداد، يطلب منهما أن يحثا متصرف» الأحساء بالعمل على طرد عبد العزيز ورفاقه منها، ومنعه من اللجوء إليها، أو التزود من أي من مدنها، فاستجابت الدولة العثمانية لرغبة ابن رشيد، فسدت أبواب الحسا في وجه عبد العزيز، وقطعت المعاش» الذي كانت تدفعه لوالده في الكويت[٩٨] ولم يكتف ابن

(٩٨) ما كانت تدفعه الدولة العثمانية لم يكن شيئا مستمرا و إنما كان لتحقيق مصالح لها آنذاك لوضع الإمام عبدالرحمن و ابنه عبدالعزيز تحت مراقبتها. كما أن هذا الدعم لم

رشيد بذلك، بل أرسل مندوبا عنه اسمه الحازمي إلى الشيخ قاسم آل ثاني، حاكم قطر، يحرضه على عبد العزيز، لكن هذا المسعى لم ينجح[٩٩] ولو علم ابن رشيد في ذاك الوقت أن عبدالعزيز كان في نيته الاتجاه إلى الرياض. لربما تغير الوضع، لأن أقل ما كان سيفعله هو أن يبعث لحاكم الرياض عجلان» بأن يكون متيقظا ليل نهار.. حتى لا يؤخذ على غرة.. وعندها تقل نسبة نجاح المفاجأة، هذا إذا لم يدعمه ابن رشيد بتعزيزات وحراسة قوية على أسوار المدينة.. لكن عبد العزيز نجح في استعمال عنصر التمويه والخداع.. وساعدته الظروف على ذلك حين انفض عنه من انفض من طلاب الغزو والغنائم، ولم يبق حوله سوى رفقاء الطريق الستين، الذين واصلوا معه حتى النهاية.. وهم قلة استطاعوا التخفي عند تحركاتهم.. حتى تحققت المفاجأة تحقيقا كاملا..

ولا نستبق الأحداث، وإنما نعود لها حيث كانت، فنرى عبدالعزيز قد هدأ قليلا عندما سدت منافذ الحسا أمامه.. ونزح هو ومن معه جنوبا إلى يبرين، التي حط فيها أثقاله ورواحله، وهي شمال الربع الخالي، على مسافة ١٦٠ ميلا من الحسا جنوبا، ومسافة ١٥٠ ميلا من الرياض في الجنوب الشرقي.. وهذا النزوح جنوبا هو بلا شك تمويه وخداع بارع..

وفي يبرين انفض عنه من انضموا إليه سعيا وراء الغنائم والأسلاب، فقد كان لتعليمات متصرف الحسا، التي تناهت لأسماعهم أثرها في تفرق بعضهم،

يصل إلى مستوى يمكن القول بأن الإمام عبدالرحمن اعتمد عليه انظر أيضا الزركلي - الوجيز في سيرة الملك عبدالعزيز - ص ٢٤ - وسعود بن هذلول تاريخ ملوك آل سعود - ص ٥٩ - وخزعل - المصدر السابق - ج ٢ ص ١٧٤.

(٩٩) الزركلي - المصدر السابق - ص ٢٤ - وسعود بن هذلول - المصدر السابق ص ٥٩، والريحاني - المصدر السابق - ص ١٢٣ - خالد السعدون - المصدر السابق - ص ٧٣.

وكان لدخول الشتاء أثر في تفرق بعض آخر، ثم لطول البقاء بدون غزو فعله الأقوى في انفضاض الجزء الأخير من هؤلاء[١٠٠] ولم يبق معه في يبرين سوى الذين خرجوا معه من الكويت.. وقلة قليلة مخلصة ممن انضموا إليه أثناء الطريق، وكان قد مضى على عبد العزيز حوالي شهر منذ أن خرج من الكويت، في أواخر جمادى الآخرة سنة ١٣١٩هـ حتى وصل إلى يبرين أواخر رجب سنة ١٣١٩هـ.

وخلال ذلك كان ابن رشيد ما يزال مقيما على الحفر، في انتظار ما تمده به الدولة العثمانية من عون وعتاد.. يمني نفسه باحتلال الكويت، وفي نفس الوقت يؤلب الدولة العثمانية على عبد العزيز، حتى كان من نتيجة ذلك أن طلبت الدولة من الشيخ مبارك، والإمام عبد الرحمن أن يعملا على عودة عبد العزيز للكويت، والكف عن تحركاته.. فكتب الإمام عبد الرحمن إلى ابنه عبد العزيز رسالة بإيعاز من الشيخ مبارك، وحملها إليه مبعوث من قبلهما، وذهب إليه في يبرين، وكان ذلك عقب انفضاض الذين انفضوا من حوله. في أواخر رجب سنة ١٣١٩هـ (١٢/١٠/١٩٠١م) وتلقف عبد العزيز رسالة والده، وقرأها، ثم نظر إلى أتباعه ورفقاء طريقه، وجمعهم حوله.. ولا ريب أنه قد تداعت إلى ذهنه المعاناة التي يعانونها، والمصاعب التي ستواجههم، ورأى بثاقب فكره أنه لا ينبغي له أن يبت في قرار يتعلق بحياتهم وأرواحهم دون الرجوع لهم.. فليس من حقه أن يفرض عليهم ما لا يحبون، أو يحملهم على ما لا يرغبون، أو يستحوذ برأيه دون آرائهم، فإن كلا منهم صاحب الشأن فيما يتخذه من قرار.. وليكن كل منهم قريبا من المسئولية.. وإقرار ما يتم إقراره، لأن الأمر أصبح في تلك اللحظة أخطر مما كانوا يتوقعونه.. فبدل الدعم

---

(١٠٠) الزركلي - المصدر السابق - ص ٢٤ - والريحاني - المصدر السابق ص ١٢٣، وابن هذلول - المصدر السابق ص ٧٣.

والمساندة ممن بالكويت ..تحول إلى استدعاء وكف عن أي عمل بسبب أن الظروف غير مواتية.. لا شك أنه موقف بالغ الصعوبة.. لا يشعر به إلا الجندي في الميدان، تلقى عليه تعليمات تثبط أحيانا من همته، وتوهن عزيمته.. بينما هو راغب في اقتحام الأهوال...

جمعهم حوله.. كأنها المشورة ينبلج شعاعها من بداية الطريق.. وقرأ عليهم رسالة والده، ثم قال: لا أزيدكم علما بما نحن فيه (إشارة إلى المعاناة) وهذا كتاب والدي يدعونا للعودة إلى الكويت.. قرأته عليكم.. ومبارك ينصحنا بالعودة، أنتم أحرار فيما تتخذونه لأنفسكم.. أما أنا فلن أعرض نفسي لأن أكون موضع السخرية في أزقة الكويت.. ومن أراد الراحة ولقاء أهله، والنوم والشبع، فإلى يساري.. إلى يساري؟!

لكن رفقاء الطريق جميعهم، تواثبوا إلى يمينه، وأدركتهم عزة الأنفة، فاستلوا سيوفهم، وصاحوا مقسمين على أن يصحبوه إلى النهاية..

وعندئذ التفت عبد العزيز إلى مبعوث أبيه والشيخ مبارك - وهو حاضر يشهد - وقال له: سلم على الإمام، وخبره بما رأيت، واسأله الدعاء لنا، وقل له: موعدنا إن شاء الله في الرياض[١٠١]

وغالب الظن أن عبد العزيز لم يفصح عن نواياه، أو يصارح جميع رفقاء الطريق بغرضه، وهو استرداد الرياض، إلا في هذا الموقف بالذات.. لكن من المؤكد أنه لم يخف ذلك عن بعضهم من المقربين إليه، كأخيه محمد بن عبد الرحمن وأبناء عمومته..

---

(١٠١) الزركلي - المصدر السابق - ص ٢٤ - وابن هذلول - المصدر السابق - ص٥٩.

وما قيل[١٠٢] من أن فكرة استرداد الرياض لم ترد إلى ذهنه، أو لم تطرأ على خاطره إلا في هذا المكان، وبمعنى آخر لم تكن هي الهدف المقرر منذ البداية.. بدليل ما روي على لسان الملك عبد العزيز نفسه من قوله: افتكرنا مع ربعنا فيما نعمل.. فاتفق الرأي على السطو على الرياض.. فلربما حصلت لنا فرصة في القلعة نأخذها بسياسة[١٠٣] وأنه لو كانت الرياض هي الهدف المقرر من البداية، لا نطلق إليها عقب خروجه من الكويت، أو بمجرد انضمام من انضموا إليه في الطريق.

ونقول بأن الفكرة تواردت إلى ذهنه كثيرا وهو في الكويت، ثم فاتح فيها والده أكثر من مرة حتى أقنعه بها أخيرا.. سواء بنفسه أو عن طريق والدته.. كما فصلنا ذلك فيما مضى.. ولعل في العبارة السابقة التي قالها لمبعوث والده، ما يعطي الدلالة على ذلك.. حين قال له: سلم على الإمام، وقل له موعدنا إن شاء الله في الرياض.. فهي توحي بأن والده كان يعرف مسبقا هدفه ووجهة سيره.. وماروى على لسانه إنما هو إشارة إلى أنه لم يفاتح جميع أصحابه، ولم يكاشفهم بنواياه إلا في هذا الموقف، عندما قرأ خطاب والده وأما كونه لم ينطلق من الكويت إلى الرياض مباشرة، فهذا هو الفارق بين إقدام المتهور وإقدام الحكيم، فلو انطلق إلى الرياض مباشرة بهذه القلة القليلة دون أن يتأكد من موقف ابن رشيد، وأثر رد الفعل عليه، وعلى الدولة العثمانية.. لو فعل ذلك لألقى نفسه في التهلكة.. فربما انطلق خلفه ابن رشيد بقواته الجرارة، وحاصره في الرياض.. ولذا أراد أن يتأكد من موقف ابن رشيد، وأثر رد فعله.. قبل الانطلاق مباشرة إلى الرياض.. وقد هداه تفكيره إلى أن يخرج في صورة من يبغي الغزو والإغارة، ولا شيء غير ذلك.. وهو

---

(١٠٢) خالد السعدون - المصدر السابق - ص ٧٣.

(١٠٣) فؤاد حمزة - البلاد العربية السعودية ص ٣٠.

أسلوب جيد للتمويه وخداع الخصم.. حتى يستكشف رد الفعل لدى كل من ابن رشيد والدولة العثمانية، وعندما انضم إليه من انضم أثناء الطريق.. لم يكن رد الفعل قد ظهر بشكل واضح، وكذلك بعد الغارات التي شنها، ظل موقف خصمه مجهولا بالنسبة له.. هل سيتبعه بنفسه، وبما لديه من قوات؟..أم يرسل خلفه أحد قواده وبعض السرايا؟.. وما هو حجم القوات التي ستلاحقه؟.. ظل الموقف مجهولا. وحتى عندما سدت منافذ الحسا في وجهه.. عرف أن هذا هو موقف الدولة العثمانية، أو بالأحرى رد الفعل لديها.. لكن أين رد الفعل لدى ابن رشيد، وهو الأهم. وفي انتظار رد الفعل هذا، أو استكشافه، اتجه إلى يبرين جنوبا، ولم يتجه إلى الرياض.. وذلك بغرض التمويه والمغالاة في الخداع.. فقاصد الرياض لا يأتي من الكويت في أقصى الشمال الشرقي، منحدرا إلى أقصى الجنوب الشرقي، حتى يصل إلى أطراف الربع الخالي، ثم يعاود المسيرة للشمال الغربي لكي يصل إلى الرياض، إذ لا يفعل ذلك إلا من قصد التمويه والتغطية على مرماه وغرضه الحقيقي. ولم يفعل عبد العزيز ذلك كله إلا ليستكشف مدى رد الفعل وحجمه، وكيف يكون؟.. حتى يواجهه بالأسلوب الملائم.. وعندما تفرق من انضموا إليه حال وصولهم يبرين، لم يأسف لفراقهم.. ولم يتشبث بضرورة استمرارهم معه.. بل ربما فضل هذه المجموعة القليلة - لتنفيذ غرضه، عندما تحين الظروف - على أضعاف عددها، لمهمة تحتاج عند تنفيذها إلى عناصر: السرعة، والمفاجأة، والتخفي، والتمويه.. بدليل أنه ظل مقيما في يبرين فترة طويلة، حوالي خمسين يوما، دون أن يتحرك صوب الرياض.. ولم يثبت - على مدى علمنا-أنه خلال هذه الفترة حاول الاتصال بالقبائل لجمع أعداد من أفرادها، وضمهم إلى هذه المجموعة المخلصة، والتي يمكن أن يطلق عليها مجموعة انتحارية.. وأنه ما تحرك من يبرين صوب الرياض، إلا بعد أن تأكد من أن ابن رشيد مشغول عنه، أو بالأصح يعطي أهمية قصوى للاستيلاء على الكويت أولا وقبل أي شيء آخر..

وأنه لا يعطي تحركاته أية أهمية.. عندئذ طرح عبد العزيز على جميع رفقائه التحرك نحو الرياض، وكاشفهم جميعا بما أخفاه عن بعضهم.. مثلما استشارهم من قبل عندما ورد إليه خطاب أبيه والشيخ مبارك.. حتى لا يرغم أحدهم على القيام بعمل لا رغبة له فيه.. وبخاصة إذا كان هذا العمل فيه مخاطرة، بل وهلاك للجميع، أو على الأقل فيه نسبة ولو ضئيلة من عدم النجاح.. فالمكاشفة ضرورية.. والمشورة واجبة، ولم يغب هذا عن ذهن عبدالعزيز.. ففعل ما يستوجبه عليه دينه، وضميره، وإنسانيته...

وعلى ضوء ذلك كله، فما يقال أيضا[١٠٤] من أنه خرج من الكويت متخفيا حتى وصل إلى الرياض، هو قول غير صحيح، ذلك لأنه قام بشن غارات في عدة أماكن متفرقة، وشاع خبره وذاع، حتى تناهى إلى أسماع ابن رشيد، وإلى الدولة العثمانية، التي أصدرت تعليماتها إلى متصرف» الحسا بمنعه من اللجوء إليها، أو التزود من أي من مدنها..

وكذلك القول[١٠٥] بأنه انطلق من الكويت مسرعا إلى الرياض، فوصلها بعد عشرة أيام، ذلك لأنه ظل في يبرين وحدها خمسين يوما، حتى حانت الفرصة، وتأكد تماما من مدى رد الفعل لدى ابن رشيد؛ فتحرك من يبرين في العشرين من رمضان سنة ١٣١٩هـ صوب الرياض.

ولا يتعارض ما أوردناه منذ قليل، من أن الملك عبد العزيز- خلال فترة السكون في يبرين، انتظارا لرد الفعل- لم يجر اتصالات مع رؤساء القبائل، على الأرجح، مع ما ورد في رواية الأمير سلمان بن محمد آل سعود - في

---

(١٠٤) أمين سعيد تاريخ الدولة السعودية» ج٢ ص ٢٣، والمانع توحيد المملكة العربية السعودية»، ص ٤٤، بيار روفائيل صقر الصحراء» ص ١٦٧.

(١٠٥) المانع توحيد المملكة العربية السعودية» ص ٤٤.

معرض ذكرياته عن الملك عبدالعزيز[١٠٦] - من أن الملك عبد العزيز قد تواعد مع بعض رؤساء العجمان، وآل مرة عند أبي جفان ؛ ذلك لأنه لم يحدد تاريخ هذا الاتفاق على موعد اللقاء، فهل تم أثناء فترة شن الغارات عندما كان بالقرب من الحسا، أم أثناء السكون في يبرين؟.. لكنه من الواضح أنه تم بعد أن قرر الملك عبد العزيز الزحف من يبرين صوب الرياض، أي بعد أن تأكد من مدى رد الفعل، وتأكد من أن ابن رشيد مشغول عنه.. بدليل أنه حدد فعلا طريق الزحف.. وأن "أبو جفان" من الأماكن التي سيمر بها في الطريق الذي حدده لزحفه.. ولهذا اتخذها مكانا للقاء.. ومع ذلك فلم يظهر أي أثر لهذا اللقاء؛ لأن عبد العزيز ظل زاحفا بمجموعته حتى الرياض.. ويجوز أنه قد سبقهم في زحفه إلى أبي جفان[١٠٧]، وانتظرهم فيه ثلاثة أيام ثم استبطأهم، فأسرع ينفذ المهمة بمجموعته، مخافة أن ينكشف أمره لو انتظرهم في "أبو جفان" أكثر من ذلك.. وهو استنتاج يقبله العقل المتأمل..

وأيا كان، فلقد تحرك الملك عبد العزيز برفقائه من يبرين ليلة العشرين من رمضان، في أول الليل، متخفيا في سيره، ومتجنبا المسالك والدروب المطروقة ببوادي حرض، وكان بزوغ القمر في الربع الأخير من الليل، لذا كان الليل في أوله شديد الظلام مما دفعه لأن يبث بعض أصحابه للأمام،

---

(١٠٦) سبق أن أشرنا إلى أن هذا الحديث - مفرغ على ورق - بمركز الوثائق بدارة الملك عبدالعزيز.

(١٠٧) أبو جفان: بكسر الجيم، وفتح الفاء.. واد يقع في الجنوب الشرقي للرياض، على الطرف الغربي للعرمة، بينه وبين الرياض حوالي مائة كيلو متر، عدد آباره حوالي خمسة وعشرين بئرا، أشهرها القموص، وهو على الطريق بين الأحساء ونواحيه، والعارض، وهو بداية لأحد الطرق المؤدية من الرياض للأحساء، وهو مما كانت تطرقه القوافل، وقتها، متجهة من الرياض إلى الأحساء، أو العكس. وقد بنى فيه الملك عبدالعزيز - فيما بعد - قصرا لتخزين المواد الغذائية والحبوب، التي كانت تجلبها القوافل من المنطقة الشرقية.. انظر معجم اليمامة ج١ ص ٥٦..

ليكونوا عيونا يستكشفون لهم الطريق، حتى أدركهم العيد عند وصولهم آبار أبو جفان في الجنوب الشرقي للرياض، فحطوا فيه رحالهم ليلة العيد، وعيدوا فيه عيد الفطر، ورحلوا منه ليلة الثالث من شوال، وعندها حث عبدالعزيز أصحابه على السرعة والتخفي، خشية أن تراهم مضارب البدو الواقعة في بطن الجبيل، فينكشف أمرهم، ويسبق خبرهم إلى الرياض[١٠٨] فحثوا الخطى حتى وصلوا إلى ضلع الشقيب (بالشين بعدها قاف)[١٠٩] وذلك احترازا من ورودها في بعض المصادر[١١٠] خطأ ضلع الشعيب» (بالشين

---

(١٠٨) الزركلي - شبه الجزيرة - ص ٨٨، ٥، س ارمسترنج - المصدر السابق - الفصل العاشر.

(١٠٩)ابن خميس - معجم اليمامة - ج٢ ص ٦١، ٢٠٩، وابن هذلول - المصدر السابق - ص٦٠.

(١١٠) من المصادر التي أوردت هذا الاسم خطأ، وقالت إنه ضلع الشعيب بدل ضلع الشقيب فؤاد حمزة في كتابه البلاد العربية السعودية» ص ٢١، أما الزركلي فقد أورده خطأ أيضا في كتاب شبه الجزيرة» ص ٨٨، ثم عاد وصوبه في كتابه الوجيز في سيرة الملك عبدالعزيز ص ٢٥، أما الريحاني فتجنب ذكر الاسم، وأشار إليه بقوله: ونزل في ضلع يبعد عن العاصمة ساعتين» انظر كتاب تاريخ نجد وملحقاته ص١٢٤، أما خزعل في كتابه تاريخ الكويت السياسي ص ١٧٥، فقال: ذيل العشب وكذا بنوا ميشان. ص ٧٦، ويبدو أن الأميرة موضى بنت منصور بن عبدالعزيز، في كتابها عبدالعزيز ومؤتمر الكويت» ص ٢٠. قد نقلت عنهما هذا الاسم، وإن لم تشر إلى ذلك، حيث أوردته باسم ديل عشب» بالدال بدل الذال.. وكذا ممن أورده خطأ ضلع الشعيب» هـ.س أرمسترنج في كتابه المشار إليه في نفس الفصل. والصواب ما أوردناه نقلا عن الشيخ عبدالله بن خميس - معجم اليمامة - ج٢ ص٦١ حيث يقول: الشقيب، تصغير شقب، وهو المضيق في الجبل، أو الشق فيه، وهذا شعب يقع جنوبي الرياض، قريبا منها، ينحدر من جبل أبي غارب، ويذهب مشرقا، فمجنبا، فمغربا، حتى يصب في وادي دعكنة ويمر أعلاه محاذيا لمصنع الأسمنت من الشمال.. وفي أعلى هذا الوادي جبل أبي غارب، الذي كمن فيه الملك عبدالعزيز ليلة هجومه لفتح الرياض.. وقد وقفت على هذا المكمن مع بعض رفقة الملك عبدالعزيز، الذين كانوا معه في هجومه، وقد ذهبت مع سمو الأمير متعب بن عبدالعزيز لتحقيق هذا المكان، ويؤيد هذا ما جاء في رواية الأمير سلمان بن محمد السابق الإشارة إليها.

والعين).. وهو ضلع يقع بجبل أبي غارب جنوب الرياض، على مسيرة ساعة ونصف للراجل، وموقعه حاليا بالقرب من مصنع الجبس بطريق الخرج.

وعند "ضلع الشقيب" هذا ترك عبد العزيز رواحله، ومؤنه، وبعض ذخائره، وترك عندها عشرين رجلا من رفقائه لحراستها، وليكونوا مددا وعونا له، فيما لو احتاج إليهم.. وزودهم بالتعليمات، والأوامر.. وكان على رأسهم في قول[١١١] معضد بن خرصان الشامري، ومسلم بن مجفل السبيعي، وعبد اللطيف المعشوق، وفي قول آخر[١١٢] أضاف إلى معضد، وابن مجفل، حزام العجالين الدوسري، وعبدالله بن خنيزان.. وكان من تعليمات عبد العزيز التي ألقاها إليهم: إذا ارتفعت الشمس - شمس الغد - ولم يأتكم خبرنا، فعودوا إلى الكويت، وكونوا رسل النعي إلى أبي، وإذا أكرمنا الله بالنصر، فسأرسل لكم فارسا، يلوح لكم بثوبه، إشارة إلى الظفر، ثم تأتوننا[١١٣].. ونرى هنا مدى الحرص والدقة والحذر في وضع الخطط وإلقاء التعليمات.. لأن معنى قدوم قادم إليهم لا يلوح بثوبه، يعتبر غريبا عنهم، ولا يعرف كلمة السر التي تبيح له التقدم نحوهم.. وعندئذ لا يمكنونه منهم ولا يعطونه الأمان.

ثم انتدب فارسين مشهورين هما سطام أبا الخيل، وعبدالله بن جريس الدوسري، وعهد إليهما أن يتقدماه ليكشفا الطريق، وألا يبعدا عنه كثيرا، وسار خلفهما ببقية الرجال حتى دنوا من أطراف الرياض، المحاطة في ذاك الوقت، ببعض الأشجار والبساتين[١١٤].

---

(١١١) أحمد عبدالغفور عطار - المصدر السابق - ج١ ص٢٤٥.

(١١٢) ابن خميس - مقالة بجريدة الرياض - العدد ٢٤٤٩ في ١٣٩٣/٥/١٥هـ.

(١١٣) أحمد عبدالغفور عطار - المصدر السابق - ج١ ص٢٤٥.

(١١٤) أحمد عبدالغفور عطار - المصدر السابق - ج١ ص٢٤٥.

وهنا أيضا نلمح أسلوب الحيطة والحذر اللازمين لنجاح الخطة الموضوعة، والتي تعتمد على عنصري المفاجأة وسرعة الحركة...

وفي أحد البساتين، شرقي الرياض، ترك عبد العزيز أخاه محمد بن عبد الرحمن، ومعه ثلاثة وثلاثون رجلا، وتقدم هو ومعه سبعة نحو سور الرياض، وقبل أن نستعرض وقائع المصمك، لنا هنا وقفة قصيرة لإجلاء جزئية يسيرة علقت خطأ بأذهان البعض، حتى شاعت، ثم عرض بعض النقاط الضرورية ومناقشتها، التي تثير الاهتمام، وتجذب شهية الباحث المتأني على تناولها بالبحث والدراسة والتحليل...

- أما الجزئية التي علقت خطأ بأذهان البعض، ثم أصبحت شائعة فيما بين عامة الناس، فهي أنهم يتناقلون أن الملك عبد العزيز، ليلة زحفه إلى الرياض، وقبل اقتحام سورها، كمن أو اختبأ هو ومن معه بجبل أبو مخروق الواقع شمال الرياض وقتها، وحاليا بحي الملز بالقرب من شارع الستين، حتى أن بعض طلاب المدارس يذهبون لهذا المكان، في رحلاتهم المدرسية، وفي ذهنهم هذا الانطباع.. ربما تلقفوه بطريق الخطأ.. أو ترامى لأسماعهم بطريق الصدفة خطأ.. وهو أمر يستحق التنبيه إليه، بعدا بالناشئة من أن يعلق بأذهانهم غير الصحيح من تاريخنا؛ ذلك لأن خط سير الملك عبد العزيز، في زحفه إلى الرياض، ليلة المصمك بالذات، كان من أبي جفان في الجنوب الشرقي للرياض، أي في مقابل الخرج تقريبا، ثم سار منه إلىضلع الشقيب وهو في مقابل مصانع شركة الأسمنت بطريق الخرج.. ثم إلى البستان الذي اختبأ فيه محمد بن عبد الرحمن بمجموعته، وهو شرقي السور، وقريب جدا منه.. وسنذكره فيما بعد. وكل هذه الأماكن التي ذكرناها تقع في الجنوب الشرقي للرياض.. أما جبل أبو مخروق فكان يقع شمال الرياض وقتها، ويبعد عن سورها بأكثر من كيلومترين.. ولم تكن بالقرب منه

بساتين، حتى يختفي فيها محمد بن عبد الرحمن بمجموعته مثلا، وليس قريبا من سورها، ولا يقع في الشرق منه.. وربما أتى هذا اللبس من أن الملك عبد العزيز - فيما بعد - اتخذه مكانا للتنزه والاستراحة فيه، يذهب إليه عندما تسنح الظروف بذلك وقت العصر.. يقول الشيخ عبدالله بن خميس(١١٥) عن جبل أبو مخروق : كان في الزمن القديم ميعادا للمسافرين من حجر اليمامة» إلى البصرة، وميعادا للمهاجمين من الغزاة، عسكر حوله عبد العزيز بن رشيد في إحدى غاراته على الرياض سنة ١٣٢١هـ، وفي زمن الملك عبد العزيز، اتخذه متنزها يرتاده بعد العصر، في كراديس من خيله، تكون حول هذا الجبل صافنة صاهلة، وهو يمتطي قمته، حيث فتحة هذا الجبل الطبيعية، نحو الشمال والجنوب، يتقي مقتعدها حرارة الشمس.

ويقول أمين الريحاني(١١٦) في معرض حديثه عن حسن معاملة الملك عبد العزيز، لجنود الدولة العثمانية، الذين كانوا قد أتوا للقصيم مناصرين لابن رشيد، فتغلب عليهم عبد العزيز، ثم أحسن معاملتهم عند رحيلهم، وأن السلطان العثماني بعث يشكر عبد العزيز على حسن معاملته لجنود الدولة، وطلب منه أن يرسل إليه أحد رجاله، فبعث إليه الشيخ صالح العذل، على رأس وفد ذهب إلى الآستانة لمقابلة السلطان.. وقوبلوا هناك بكل حفاوة، وكان هذا الحدث بالغ الأهمية، لذوي الحس التاريخي، لما يحمله من تطور في علاقة الدولة بعبد العزيز.. الأمر الذي جذب إليه شهية أمين الريحاني، فظل يبحث عن خلفياته وأسراره، يقول: أتيح لي الاجتماع بصالح باشا العذل، يوم كنت بالرياض، فألفيته شيخا جليلا، اجتمعت به في أبو مخروق يوم

---

(١١٥) ابن خميس - معجم اليمامة - ج٢ ص٣٤٤.

(١١٦) أمين الريحاني - المصدر السابق - ص ١٣٤- ١٦٣.

خرج عظمة السلطان للنزهة، وكنا في معيته، وأبو مخروق على مسير ساعة من الرياض».. والمكان الذي اختبأ فيه محمد بن عبدالرحمن بمجموعته، أقرب إلى سور الرياض من مسير ساعة.. إذن يتبين من كل ما سبق أن جبل أبو مخروق لم يكن على طريق الملك عبد العزيز في زحفه، وبالتالي لم يكمن أو يختبىء فيه ليلة المصمك..

مدينة الرياض ذاك الوقت

ونأتي بعد ذلك لإحدى النقاط التي تثير الاهتمام، وتجذب شهية الباحث المتأني لتناولها بالبحث والدراسة، والتمحيص والتحليل.. وهي مدينة الرياض.. لأهمية معرفتها والإحاطة بها قبل سرد ما حدث ليلة المصمك.. ما مساحتها، وحدودها، ومعالمها، وسورها؟.. بعد أن ذاب كل ذلك في أحشاء الرياض الحديثة، وطغت عليه بما لحقها من تطور، ونمو حضاري وعمراني في شتى الميادين، بمعدل فاقت فيه أي مدينة في العالم خلال العشرين عاما الأخيرة..

إن البحث في إيضاح تلك المعالم، والحدود، والمساحة، وتحديدها على الطبيعة تحديدا دقيقا في وقتنا الحالي، فوق طاقة أي باحث بمفرده، لا سيما وأن سورها ظل فترة طويلة، محيطا بها، كإحاطة السوار بالمعصم، يأبى ألا يفارقها، خوفا عليها، أو ضنا بها من الذوبان في تيار الحضارة الجارف.. ولم تتم إزالته إلا عام ١٣٧٠هـ تقريبا[١١٧] .. لأن النمو الحضاري والتطور العمراني حينما يمر على المدن ذات التاريخ، وعلى القلاع والحصون، يترك منها شواهد قائمة، تعانق الزمن، وتطاول السحاب، لإثبات تاريخها العريق، والحافل، ومما يستحق الإشادة والتنويه به، أن الهيئة العليا لتطوير مدينة الرياض، -

---

(١١٧) حمد الجاسر - الرياض عبر أطوار التاريخ - ص ١٢٢.

بتوجيه من سمو الأمير سلمان بن عبد العزيز، أمير منطقة الرياض، راعي هذه النقلة الحضارية التي شهدتها المدينة - قد أقامت بوابة الثميري في نفس مكانها القديم تقريبا من سور الرياض، وكانت تعتبر المدخل الرئيس، أو البوابة الرئيسة للرياض.. وبقي أن توضع علامات - ولو صغيرة - لأماكن البوابات الأخرى، وحدود السور، ويسجل ذلك في كتاب يقرأ، ويحفظ للتاريخ.. وللأجيال القادمة.. ويتضح مدى أهمية ذلك، إذا عرفنا هذه الحقيقة المذهلة، وهي أن مدينة الرياض كانت ليلة المصمك، لا تزيد مساحتها على نصف كيلو متر مربع، بل أقل (٠,٤) فأصبحت الآن في المخطط الجديد ١٢٠٠ كيلو متر مربع، أي بنسبة ١: ٢٥٠٠ [١١٨] أي آلاف الأضعاف مما كانت عليه يومها..

وليس معنى كون تلك الدراسة فوق طاقة أي باحث بمفرده، تثبيط همم الباحثين؛ وإنما للحرص والاستنارة بمعلومات أولي العلم والمعرفة.. ونحن من جانبنا نحاول، قدر الاستطاعة، إضاءة شعاع يسير في هذا الموضوع، من خلال استعراضنا لما قيل في المراجع عن الرياض وتاريخها، قد نصل على ضوئه إلى تصور، يكون قريب الشبه إلى حد ما، للرياض، من جهة حدودها ومساحتها...

يقول محمد المانع[١١٩] .. من المحتمل جدا، أن مدينة الرياض كانت سنة ١٩٠١م مثلما كانت عليه سنة ١٩٢٦م، حينما التحقت بخدمة جلالة الملك عبدالعزيز.. كانت محاطة بسور خارجي، مبني من الطين، يبلغ ارتفاعه حوالي عشرين قدما، وفي كل جهة من جهاته الأربع، بوابة ضخمة، (أي

---

(١١٨) المعهد العربي لإنماء المدن (الرياض مدينة المستقبل) ص٧، ٢١.

(١١٩) توحيد المملكة العربية السعودية ص ٤١.

جعلها أربع بوابات فقط).. وكانت المدينة ذاتها صغيرة، لدرجة أن عرضها لم يكن على الأرجح، أكثر من ألف وخمسمائة متر، في أوسع نقاطه، وكان في داخلها طرقات متعرجة، يبلغ ضيق بعضها حدا يجعل من الصعب أن يسير فيه رجلان جنبا إلى جنب، وكانت عملية اقتحام ابن رشيد لاستحكامات المدينة سنة ١٣٠٩هـ قد سببت أضرارا بالغة لسورها الخارجي، ولم يفكر هو، ولا ابن أخيه من بعده أبدا، بأنه يستحق أن يصلح من جديد، فظلت مواضع منه متهدمة، ومع ذلك بقيت المدينة صعبة الاقتحام، وكان في كل بوابة من السور برج يحتله رجلان أو ثلاثة للحراسة.

ويقول أستاذنا الشيخ حمد الجاسر[(١٢٠)] .. كانت مدينة الرياض محاطة بسور مبني من الطين واللبن، أقامه الملك عبد العزيز(أي استكمل بناء ما تهدم منه من قبل) بعد استيلائه عليها في شهري شوال وذي القعدة سنة ١٣١٩هـ[(١٢١)] واستغرقت مدة بنائه أربعين يوما، وفيه أبواب المدينة، في جوانبها وجهاتها...

- فمن الشرق (باب الثميري) نسبة إلى رجل من أهل حريملاء، قتل عند هذا الباب، في عهد قيام الدولة السعودية في دورها الأول..

- والباب الشمالي، يدعى (باب آل سويلم) منسوب إلى أسرة معروفة بهذا الاسم، من أشهر أسر المدينة وأعرقها، لسكناها بجوار هذا الباب.

- والباب الجنوبي، يدعى (باب دخنة) لمجاورته لبئر تعرف بهذا الاسم، كان يستقى منها ماء الشرب.

---

(١٢٠) حمد الجاسر - المصدر السابق - ص ١٢٠.

(١٢١) في الكتاب.. ذو القعدة سنة ١٣١٨هـ، وهو بالتأكيد خطأ طباعي، والصواب ما أثبتناه وهو عام ١٣١٩هـ.

- والباب الغربي، يدعى (باب المذبح) لكون الجزارين والقصابين يذبحون الإبل والبقر والغنم خارجه، ثم ينقلون الذبائح داخله.

- والباب الجنوبي الغربي، يدعى (باب الشميسي) لاتصاله بمحلة من المحلات خارج المدينة، تدعى بهذا الاسم.

ويسمى أهل الرياض الباب دروازه تأثرا باللغة الفارسية، لكثرة اتصال هذه المدينة ببلاد فارس للمتاجرة..

وجاء في كتاب الرياض مدينة المستقبل[١٢٢] .. كانت الرياض في العقد الأول من القرن العشرين الميلادي، شبيهة من حيث المساحة والسكان، بما كانت عليه في أواخر القرن التاسع عشر، إذ لم يطرأ عليها أي تغيير يذكر، وكانت البلدة دائرية الشكل تقريبا، ولا يزيد قطرها على ثلاثة أرباع الكيلو متر، وبذلك كانت مساحتها حوالي ٠,٤ كيلومتر مربع.. وإن حصل شيء من الزيادة فهو من جهة باب الثميري في الشرق.. وفي اتجاه الإقليم الزراعي في الجنوب.. وفي العقد الثاني من هذا القرن، واستنادا إلى خريطة فيلبي[١٢٣] تحول شكل البلدة إلى ما يشبه المستطيل، يتجه من الشمال إلى الجنوب وبلغت مساحتها نحو ٠,٩ كيلومتر مربع..

وقد وصف أحد الأوروبيين (بلجريف) الذين زاروا الرياض عام ١٢٧٩هـ، مدينة الرياض بأنها كانت مربعة الشكل ويجتازها شارعان رئيسان، أحدهما في اتجاه شمالي/جنوبي، والآخر، في إتجاه شرقي/غربي، وعليه فقد كانت مقسمة إلى أربعة أحياء محددة، والمعتقد أن هذين الشارعين هما شارع آل

---

(١٢٢) المعهد العربي لإنماء المدن - المصدر السابق - ص٧، ٨، ١٤.

(١٢٣) أوردها في كتابه تاريخ نجد .

سويلم، وشارع الثميري على التوالي، وفي عام ١٣٣٥هـ وصل للرياض جون فيلبي، ووصف الرياض بأنها محاطة بسور سميك، من الطوب واللبن المجفف، ارتفاعه ٢٥ قدما، ومحاطة بحاشية من التصاميم المدببة البسيطة التي تعترضها حصون، وأبراج للحراسة دائرية، ويوجد بالسور مجموعة من البوابات المحصنة، كانت بمثابة منفذ إلى بساتين النخيل المسورة، التي تحف بالقرية.. ثم أورد البوابات الخمس التي سبق ذكرها.. ثم ذكر أن سكان الرياض في بداية القرن العشرين، كانوا حوالي عشرة آلاف نسمة..

ويقول الشيخ عبدالله بن خميس[١٢٤] .. كانت مدينة الرياض صغيرة، محاطة بسور له أبواب، هي: باب الثميري، وباب القري، وباب دخنة، وباب منفوحة، وباب المريقب، وباب المذبح، وباب آل سويلم، وباب الظهيرة، (ولم يذكر باب الشميسي).. ثم يقول: وبوسط المدينة قصر المصمك، قصر محكم، مربع بأربعة أبراج، بني كله من الطين، ويقع بين الظهيرة وبين حلة الأجناب... كما أورد الوشمي نفس هذا العدد للبوابات، غير أنه ذكر اسم عرعير بدل دخنة، وقال إنها مقابلة لبلدة منفوحة ومعكال.

ويقول الدكتور عبدالرحمن الشريف[١٢٥] - نورده بشيء من التصرف-: زار بلجريف في سنة ١٨٦١م، الرياض ووصفها جيدا، ورسم لها خريطة، كانت أول خريطة كروكية» للرياض.. ويمثل الوصف والخريطة الرياض في أواسط

---

(١٢٤) معجم اليمامة - ج١ ص٢٩٤، ٤٩٠ وقد نقلنا ما قاله بإيجاز واختصار وانظر: أحمد بن مساعد الوشمي، المصدر السابق، ص١٣.

(١٢٥) انظر كتاب مدينة الرياض دراسة في جغرافية المدن» الدكتور عبدالرحمن الشريف.. أسهمت دارة الملك عبدالعزيز في طباعته.

القرن التاسع عشر، إن لم يكونا يمثلانها في القرن كله.. ومن دراستها يمكن استخلاص الحقائق التالية:

١- إن شكل المدينة كان دائريا، مع انحناء بسيط باتجاه الجنوب الشرقي.

٢- لا يوجد مقياس رسم لها، ولكننا إذا قارناها بخريطة فيلبي في سنة ١٩١٩م - وهي كروكية» أيضا لكن لها مقياس رسم - نلاحظ تغير معالم المدينة، بحيث لم يبق من المعالم السابقة سوى اتجاه الشوارع الرئيسة الأربعة، والساحات المركزية، رغم أن المدة التي تفصل زمن الخريطتين عن بعضهما هي ٥٧ سنة فقط.

٣- من مقارنة أبعاد ثابتة في الخريطتين يمكن أن نستنتج أن مساحة الرياض في القرن التاسع عشر لا تبلغ نصف كيلو متر مربع، ويبدو أن مساحتها كادت تتضاعف في سنة ١٩١٩م...

٤- كانت حدود المدينة في منتصف القرن التاسع عشر، تتوقف إلى الشمال من موضع الجامع الكبير، بنحو ١٠٠م، أي أنها كانت تضم جزءا محدودا مما بين بدايتي شارعي السويلم والظهيرة، وفي الشرق كانت تصل إلى نحو منتصف شارع الثميري؛ أي على بعد نحو ١٠٠م من مجرى السيل (البطحاء) غير أنها تقترب من المجرى كلما اتجهنا إلى الجنوب..

وتبتعد حدود المدينة عن ساحة الصفاة من الجنوب نحو ١٨٠م، أي أنها لم تكن تتجاوز ساحة دخنة الحالية، ولكنها كانت تضم أسواق الديرة جميعها، بينما كانت تبتعد الحدود الغربية عن ساحة الصفاة نحو ١٣٠م، وبذلك كانت تضم أسواق الديرة الغربية، ولا تبلغ شارع العطايف.

وكانت الرياض في العقد الأول من القرن العشرين شبيهة بما كانت عليه في أواخر القرن التاسع عشر، وكانت دائرية الشكل تقريباً، ولا يزيد قطرها على ٣/٤كم، وبذلك كانت مساحتها حوالي ٠.٤كم² بحيث أصبحت حدودها الشرقية على شكل خط منحنٍ إلى الداخل قليلاً، موازياً مجرى الوادي، على بعد ١٠٠م في الغرب، وتنحني الحدود الجنوبية مسايرة موضع شارع خالد بن الوليد الحالي، الذي يمر من ميدان دخنة.. ومن ميدان دخنة، متجهاً للشرق، وتستمر الحدود في الانحناء على شكل نصف دائرة كاملة حول المقيبرة أي أسواق الخضار واللحوم الحالية، وحول أسواق الديرة الغربية.. وتنحني كذلك شمال الجامع الكبير بعمق ١٥٠م، فيما بين شارعي السويلم والظهيرة الحاليين.. حتى يلتقي مع الحدود الشرقية..

وعلى ضوء ذلك كله.. نستطيع أن نتصور شكل مدينة الرياض، والسور المحيط بها، وأنه كان بالسور في الجهة الشمالية بوابتان، أولاهما: بوابة آل سويلم في الشمال الغربي، وثانيتهما: بوابة الظهيرة في الشمال الشرقي، ويبدو أن الجزء الواقع فيما بين بوابة الظهيرة، ونهاية السور (عند شارع الملك فيصل حالياً) كانت به ثغرات وفتحات، أو أجزاء متهدمة، نتيجة لما صنعه ابن رشيد بالمدينة عام ١٣٠٨هـ عقب موقعة المليداء، وعام ١٣٠٩هـ عقب موقعة حريملاء. وهو أمر طبيعي أن تكون هذه الجهة هي الواجهة لتلقي هجمات المغيرين على الرياض من الشمال، لأنها المقابلة لهم، وليس معنى هذا أن بقية الجهات لم تكن بها ثغرات، من أثر المعاناة، والحصار، والضرب.. لكننا نقول إنها ربما كانت أكثرها تأثراً، وكان في مقابلها، وأمامها خارج السور يوجد بستان الشمسية الوافر بالنخيل، والنخيل يغري المغيرين للتستر والتخفي، ومن هذا المكان تخطى الملك عبدالعزيز سور الرياض بمجموعته متجهاً إلى المصمك، وكانت معظم البيوت الواقعة خلف السور، وحتى

المصمك ملك لآل سعود. فكانت أنسب وآمن لو شق طريقه وسطها ، إضافة لأن المسافة للمصمك أقرب، هذا إذا أضفنا قرب بستان الشمسية من السور، وهو أنسب مكان يمكن الاختفاء فيه.. لأن البستان كان مليئا بأشجار النخيل، وكانت به قناة ممتدة إليه من مجرى السيل لسقيا هذا النخيل، وفي هذا المكان اختبأ محمد بن عبدالرحمن بمجموعته، اتخذوا من أشجار النخيل ستارا يقيهم أعين الرقباء، أو الحراس في الأبراج وليكونوا قريبين من عبدالعزيز فيما لو استدعاهم، أو طلب معونتهم، أو تدخلهم في أي اشتباك يقع.. ففي الشمسية إذن كان مكمنهم، وليس في الشميسي؛ لأن منطقة الشميسي أبعد من هذه، فضلا عن أنه لم يكن بها بساتين، لأنها حزون ومرتفعات.. ومما يؤيد ذلك ما رواه الأمير سلمان بن محمد في معرض ذكرياته عن الملك عبدالعزيز(١٢٦) من أن الملك عبدالعزيز دخل الرياض (أي اقتحم السور) من عند دروازة الظهيرة ومجرى السيل.... أي المنطقة الواقعة فيما بين بوابة الظهيرة وشارع الملك فيصل (الوزير سابقا)، أي نهاية السور من الجهة الشرقية.. وفي مقابل هذه الجهة كانت الشمسية. بنخيلها الكثيف المترامي(١٢٧)

---

(١٢٦) سبق أن أشرنا إلى أن نص هذا الحديث منسوخ على الآلة ، ومحفوظ بالوثائق بالدارة.

(١٢٧) من الذين ذكروا أنهم اختبأوا في الشميسي.. الزركلي انظر شبه الجزيرة» ص٨٨، لكن الغريب أنه عندما أرخ لهذا في كتابه - الوجيز - ص٢٦ ، قال: تقدم بالأربعين على أقدامهم.. فدخل نخلا في شرق الرياض، واستبقى فيه ثلاثة وثلاثين ممن معه، وجعل قيادتهم لأخيه محمد.. وهو هنا لم يذكر الشميسي، وإنما ذكر نخلا في شرق الرياض ، والشميسي ليست شرق الرياض ، وإنما جنوبها ، ويبدو أنه يقصد الشمسية، لأنها هي الواقعة شمال شرق الرياض.. وقد ذكر الشيخ خزعل في كتابه - تاريخ الكويت - ص١٧٤، اسم الشمسية ، للمكان الذي اختبأ فيه محمد بن عبدالرحمن ومجموعته..

النقطة الثانية التي تثير الاهتمام، هي في الواقع جديرة بالمناقشة والدراسة، لكونها لافتة لنظر من يتناول تاريخ الملك عبدالعزيز، من حيث اختلاف الكتاب والمؤرخين اختلافا بينا، أولا: في عدد هؤلاء الذين رافقوا الملك عبدالعزيز في زحفه للرياض، وثانيا: في بيان أسمائهم.. بعضهم زاد عن بعض، والبعض الآخر أورد من الأسماء ما لم يورده الآخر.. وكان الأجدى بهم ألا يكون هناك أثر لهذا التباين والاختلاف، لاسيما وأن الفترة الزمنية لوقوع الحدث والتأريخ له ليست ببعيدة، فضلا عن أن الكثير من هؤلاء الكتاب والمؤرخين، قد عاصروا المغفور له الملك عبدالعزيز، وعايشوا بعض من رافقوه إلى المصمك.. فكان أحرى بهم ألا يضيعوا فرصة السؤال في حينه، والتحري عن حقيقة الخبر وأخذه من منبعه... وتدوينه بدقة لمن يأتي بعدهم.. وللتاريخ.. لأنه موضوع يخرج عن نطاق الاجتهادات، وإبداء وجهات النظر.. طالما أن أصحاب الشأن على قيد الحياة وقتها.. مجرد عتاب يساق على ضياع فرصة ما كان ينبغي لها أن تضيع.. اللهم فيما عدا واحد يستثنى من العتاب في هذا الموضوع بالذات؛ لأنه نسب ما رواه إلى الملك عبدالعزيز نفسه.. وسنأتي على ذكر ذلك فيما بعد.

ما حقيقة العدد؟..

عند استعراضنا لما أورده هؤلاء وأولئك، نجد أن البعض قد ذكر بأن العدد[(١٢٨)] ٦٠ وبعضهم قال: ٥٧ [(١٢٩)] وفريق قال: ٤٧[(١٣٠)] وبعض قال: ٤٣ [(١٣١)]

---

(١٢٨) من الذين قالوا بذلك، فؤاد حمزة - البلاد العربية السعودية - ص ٢١، ولم يذكر بيان الأسماء، وكذلك الزركلي - شبه الجزيرة - ص ٨٨، وأورد الأسماء التي ذكرها كل من الأمير سعود بن هذلول، وعبدالوهاب فتال :غير أن سرده التاريخي يؤيد أنهم ستون رجلا، وكذلك أحمد عسه - معجزة فوق الرمال ص ٤٩ ولم يذكر أسماء، وكذلك بيار روفائيل - صقر الصحراء - ص ١٦٢، ولم يذكر أسماء، وكذلك الشيخ عبدالله بن خميس في مقالته بجريدة الرياض، العدد ٢٤٤٩، بتاريخ ١٣٩٣/٥/١٥هـ، وقد فصل

وآخرون قالوا: ٤٠[١٣٢] .. وبالتأكيد فإن لكل منهم وجهة نظره، وحجته وإسناده فيما ذهب إليه.. مع ملاحظة أن بعضهم نقل عن بعض في هذا..

وقبل أن نناقش تلك الأقوال، نود أن نعرف، ما المقصود بمدلول العدد - المشار إليه أعلاه.. - أهو العدد على وجه التحديد والتعيين، أم العدد التقريبي؟ بمعنى أن من قال: إنهم أربعون مثلا، أيقصد بقوله هذا، أنهم أربعون فقط، لا يزيدون ولا ينقصون؟.. أم أنه يقصد أنهم أربعون على وجه التقريب..

وبين الأسماء، وقال: إن عدد المجموعة الغازية ستون.. أما المهاجمون فهم يزيدون قليلا عن الأربعين، وأورد أسماء ثلاثة وأربعين رجلا، يقول: إنهم هم الذين اشتركوا في اقتحام المصمك.. وما عداهم كانوا يحرسون الرواحل والإبل.. وممن قال أيضا بذلك أمين الريحاني - نجد وملحقاته - ص ١٢٤، ولم يورد أسماء.. وكذلك ممن قال بذلك: الشيخ عبدالرحمن بن عبداللطيف آل الشيخ، في تعليقه على كتاب عقد الدرر» ص ١٠٤ وذكر أسماءهم، موضحا سنده في هذا..

(١٢٩) من بين من قالوا بذلك: الشيخ محمد المانع في كتابه توحيد المملكة العربية السعودية» ترجمة الدكتور عبدالله العثيمين، ص ٣٥٩، حيث أورد بيانا بالأسماء، وعددهم ٥٧.

(١٣٠) من بين من قالوا بذلك: الشيخ سعد بن عبدالعزيز الرويشد، في مقالة نشرت بجريدة الجزيرة، العدد ٣٧٢١ بتاريخ ١٢ صفر ١٤٠٣هـ..

(١٣١) أورد الشيخ عبدالله بن خميس ٤٣ أسما من أسمائهم، وقال إنهم هم الذين اشتركوا في الهجوم على المصمك، ثم قال إن الباقين ظلوا في حراسة الرواحل والإبل، وذلك بمقالته بجريدة الرياض، العدد ٢٤٤٩ في ١٣٩٣/٥/١٥هـ الذي سبق أن أشرنا إليه.. وبهذا يكون متفقا مع من قال إن عددهم في الزحف كان ستين رجلا.. وإن كان لم يعد سوى المقتحمين للمصمك.. وهي وجهة نظر..

(١٣٢) من الذين قالوا بذلك: أمين سعيد - تاريخ الدولة السعودية - ج٢ ص ٢٤، ولم يذكر بيانا بالأسماء، وكذلك الأمير سعود بن هذلول - تاريخ ملوك آل سعود - ص ٥٨، وقد ذكر بيانا بأسماء اثنين وأربعين رجلا، وكذلك الأستاذ أحمد عبدالغفور عطار - صقر الجزيرة - ج١ ص٢٤٣، وقد أورد أسماء ثلاثة وأربعين.

بحيث يكون العدد قابلا لزيادة واحد أو اثنين مثلا، أو نقصانهما.. أو يدخل فيه معظم أعداد العقد الذي يليه، أو الذي يسبقه...

قال الزركلي: كلمة الأربعين يكثر ورودها في أخبار عبدالعزيز، وليس الغرض منها إلا ما يقارب هذا العدد، يزيد أو ينقص[١٣٣] وإذا أخذنا بوجهة النظر هذه، فإن الموضوع لا يكون فيه خلاف بين وشاسع.. لا سيما أن من قالوا إنهم ستون، قد نظروا إلى العدد الكلي الذي رافق الملك عبدالعزيز، واستمروا مرافقين له، منذ أن تحرك من يبرين» إلى ضلع الشقيب مرورا بأبي جفان، حتى تم استرداد الرياض.. وأما الذين ذكروا أن العدد أربعون، فقد نظروا إلى الذين انطلقوا مع الملك عبدالعزيز من ضلع الشقيب وتسوروا السور واقتحموا المصمك.. حتى تم استرداد الرياض.. ويأتي على وجهة النظر هذه من قالوا إنهم ثلاثة وأربعون، وبقية الأقوال.. لأن ذكر الأربعين تقريبي، وليس على وجه التحديد والتعيين، وعلى هذا فليس هناك خلاف واضح..

لكن يرد على وجهة النظر هذه، بأن معظم الذين ذكروا تلك الأرقام، قد ذكروا في الوقت نفسه الأسماء على سبيل التحديد والتعيين، بما يتوافق مع العدد الذي ذكروه، ولذا زيدت بعض الأسماء، ونقص بعضها حسب كل رواية.. فيكون المقصود هو العدد على وجه التعيين لا التقريب.. بل إن البعض أسقط من التعداد أسماء الخدام، وإن أتى على ذكر أسمائهم عند تحديده بيان الأسماء.. تماما كما أسقط البعض أسماء من ظلوا في ضلع الشقيب يحرسون الرواحل والعتاد والزاد.. واكتفى بذكر الذين صحبوا الملك عبدالعزيز بعد التحرك من ضلع الشقيب..

---

(١٣٣) شبه الجزيرة - ص ٨٤.

ولا ريب أن هؤلاء حسنو النية، وصادقون في مقولتهم، حتى أنهم لم يذكروا سوى من اشتركوا بالفعل في الاقتحام، وربما يكون غرضهم إضفاء دور البطولة والبسالة التي توجت هامات هؤلاء الأبطال، بما صنعوه من مجد خلده التاريخ لهم.. تحت قيادة العبقرية الفذة في اقتحام الأهوال.. والتغلب على الأنداد، في كافة الميادين، والتي بدأت في تلك الليلة التاريخية، بداية موفقة، بتوفيق من الله سبحانه وتعالى، فالذين قصروا تعدادهم على هؤلاء فقط، كانوا يقصدون إظهار دور البطولة، في اقتحامهم، وتغلبهم على قوة كانت محصنة، وأكثر منهم عددا، وعدة، واستولوا على كل ما كان بأيديهم.. بل استولوا على البلد كلها، والتي كان يبلغ تعدادها في ذاك الوقت عشرة آلاف نسمة[١٣٤].. أو حتى نصف هذا العدد. لكن دعونا نناقش وجهة النظر هذه.. هل من الإنصاف أن نتغاضى عن ذكر أسماء هؤلاء الذين ظلوا عند الرواحل في ضلع الشقيب؟.. وهم لا يقلون شجاعة وبسالة عن هؤلاء؛ بل إنهم كانوا معرضين أيضا للإيقاع بهم، وسلب ما بأيديهم.. فضلا عن كونهم عونا وزودا ومددا للقوة المهاجمة فيما لو احتاجوا إليهم.. ولذلك نرى الشيخ عبدالله بن خميس يقول[١٣٥].. هؤلاء بقوا عند الرواحل، ورسمت لهم خطة حربية معينة يسيرون بموجبها، وهي لا تقل خطورة عن خطة المهاجمين، وفي نظري أن من حملوا أرواحهم على أكفهم، وتقلدوا أكفانهم، ودخلوا حمى الرياض، كلهم في الشجاعة والبطولة سواء.. بدليل أن الملك عبدالعزيز رحمه الله، ترك من بين الذين قعدوا عند الرواحل أبطالاً من بينهم معضد بن خرصان الشامري، ومسلم بن مجفل السبيعي، وحزام العجالين الدوسري، وعبدالله بن خنيزان.. ونحن نضيف إلى ذلك ما عهدناه جميعاً، وما نعرفه من

---

(١٣٤) المعهد العربي لإنماء المدن - الرياض مدينة المستقبل - ص ٨.

(١٣٥) المقالة المنشورة بجريدة الرياض - العدد المشار إليه سابقاً.

أن النظام المتبع في تشكيلات الجيوش الحديثة المعاصرة.. أن الكتيبة مثلاً تتكون من عدة سرايا.. وكل سرية لها مهمة محددة في ميدان القتال.. فهذه للدبابات، وهذه للمدفعية، وتلك للاسلكي، ومعهم سرية للتموين والخدمات.. وهذه تكون غالباً في المؤخرة من حيث التواجد في الميدان، وعليها يقع عبء كبير، لا يقل أهمية عن الموجودة في المقدمة؛ لأن مهمة تزويد المتقدمين بالأسلحة، والتموين، وغير ذلك بما يضمن استمرارهم في التقدم والصمود، أمر ليس سهلاً في ميدان القتال، الذي تتساقط فيه القذائف من كل جانب.. بل يحدث أحياناً أن يركز العدو هجماته، وغاراته على هذه، لإعاقتها عن أداء مهمتها في تزويد المتقدمين بما يحتاجونه، وبذلك تقل كفاءة المهاجمين، وتشل حركتهم، ويسهل تطويقهم، أو إبادتهم. ومن ثمَّ يكون التغلب على الجميع بشكل عام.. وأساليب الحرب الحديثة خير شاهد على هذا.. ولهذا لا يمكن تجاهل أفراد الخدمات والتموين، عند تعداد أفراد أي كتيبة، أو فرقة مثلاً في أي جيش كان.. فليس إذاً من الإنصاف أن نعرض عن ذكر هؤلاء الذين ظلوا عند الرواحل في ضلع الشقيب.. وعلى ضوء ذلك يتضح لنا مدى رجاحة وإنصاف الذين عدوا من بقوا عند الرواحل ضمن من رافقوا الملك عبدالعزيز، وشاركوا في استرداد الرياض.. ومن أراد أن يخص بالذكر أسماء الذين شاركوا في تسور السور، والاقتحام، فعليه أن ينعطف إلى هؤلاء أيضاً بالذكر إحقاقاً للحق، وإنصافاً للتاريخ.. وللأمانة العلمية.. ولعلنا نرى خير مثال يضرب في هذا المجال، هو التاريخ الإسلامي، حين استقصى بالذكر - في الغزوات - الجميع حتى النساء اللائي كن يخرجن مع المجاهدين، للسقيا وتضميد الجراح..

وقد حاول الكثيرون استقاء المعلومات حول العدد من حيث الكم، وبيان أسمائهم، من أفواه الذين شاركوا في هذا العمل الخالد.. أو من الذين

عاصروا المغفور له الملك عبدالعزيز، وشاركوه في مراحل تأسيس هذا الكيان الكبير.. وهو عموماً جهد يشكرون عليه كل الشكر.. لكن فاتهم اللجوء مباشرة للملك عبدالعزيز نفسه، لاستقاء المعلومات من منبعها.. والبعض فاتهم ذلك بوفاته رحمه الله، فصوبوا همتهم إلى رفقاء الطريق.. وهؤلاء امتد بهم الزمن، وطال بهم العهد، عن تلك الليلة الحافلة.. فهي وإن نقشت حوادثها ووقائعها في أذهانهم بمداد لا يمحوه ما تعاقب عليهم بعد ذلك.. وما شاهدوه من حروب وأحداث.. لكن الأسماء، ودقتها، أو ما يتبادر إلى الذهن من عالم النسيان، عامل مهم في عدم التثبت من ذكر الأسماء وتأكيدها.. فأنت قد ترى شخصاً جمعتك به الأيام منذ عشر سنين، أو أكثر، وحين تراه تصدقك العين، بأنك رأيته من قبل، لكنك لا تذكر اسمه في نفس اللحظة، ويحتاج منك تذكّر اسمه إلى استحضار الذاكرة، وإعمال الذهن حتى تتذكر الاسم.. وأحياناً لا تتذكره إلا بعد أن تسأله عن الاسم الذي ضاع منك في عالم النسيان، مع أن العين قد صدقتك من أول وهلة رأيته فيها.. وأحياناً أخرى تخيب العين هي الأخرى، لعدة أسباب منها تغيير ملامح الشخصية مثلاً.. فينطق الشخص باسمه إليك.. فتعود إليك ذاكرتك وقد جذبته إليك من عالم النسيان.. ومن منا يذكر أسماء جميع زملائه من سنوات دراسته مثلاً، ممن فارقوه أكثر من عشرين عاماً.. لا شك أنه إن تذكر اسماً سوف تغيب عنه أسماء.. وعلى فرض التذكر فإنه من الصعب تذكر الاسم ثلاثياً، ومن هنا وقع الاختلاف في الأسماء.

وأياً كان فإننا الآن أمام العدد من حيث الكم.. أما بيان الأسماء فلن نتطرق إليه هنا فما كتب عنها فيه زيادة و نقص حسب مفهوم كل كاتب و مؤرخ للمشاركة في القتال من عدمه. و بها أسماء اتفق الجميع على إيرادها، و أسماء انفرد بها البعض الآخر. أما بيان العدد فلا توجد أمامنا إلا رواية

أسندها راويها إلى المغفور له الملك عبدالعزيز نفسه، للعدد من حيث الكم، وهي رواية فؤاد حمزة[١٣٦] وإن كان لم يورد بياناً بالأسماء.. لكنها تعطينا صورة دقيقة ومفصلة لما حدث تلك الليلة، والعجيب أن معظم الروايات.. نقلت أحداث تلك الليلة كما رواها فؤاد حمزة، أو أوردتها مجملة، ومختصرة أحياناً، ومع ذلك لم يعتمدوا ما قاله في العدد من حيث الكم.. فمثلاً: الزركلي[١٣٧] اعتمدها من حيث تفاصيل الأحداث، وتردد في ذكر العدد صراحة، مع أن سرده التاريخي لأحداث تلك الليلة، يفيد بأنهم كانوا ستين رجلاً، وكان عليه أن يسأل الملك عبدالعزيز نفسه عن ذلك، لا سيما أنه ممن عملوا معه، وكانوا على مقربة منه....

ونعود لرواية فؤاد حمزة، التي تنال الصدارة في اعتقادنا، من جهة الإسناد إلى الملك عبدالعزيز، لنتساءل.. هل كانت هذه الرواية مصدر شك لدى البعض بحيث أعرض عنها، سواء في التفاصيل أو في العدد، وأخذ يبحث عن الحقيقة في مكان آخر..؟.. الواقع أن ما عُرف عن تاريخ فؤاد حمزة يجلّه عن أي شك فيما يقول، أو يروي.. وفي هذه النقطة بالذات[١٣٨].. لأنه التحق بخدمة الملك عبدالعزيز عام ١٣٤٥هـ، مترجماً له، وعند إنشاء وزارة الخارجية عام ١٣٤٩هـ انتقل للعمل وكيلاً لها، ثم وزيراً مفوضاً بباريس، ثم بتركيا، ثم عاد مستشاراً للملك عبدالعزيز في الرياض، وخلال عمله كان على مقربة من الملك عبدالعزيز.. يسمع أحاديثه ويعيها، بذاكرة قوية، هي ذاكرة

---

(١٣٦) انظر كتاب البلاد العربية السعودية» ص ٢٠.

(١٣٧) انظر كتاب - شبه الجزيرة في عهد الملك عبدالعزيز - ص ٨٨- ١٠٠.

(١٣٨) لأن لنا عليه ملاحظات فيما أورده في كتابه - البلاد العربية السعودية - عند ذكره نسب آل سعود - فقد وقع في بعض الأخطاء الواضحة.. وهي أخطاء تاريخية يقع فيها الكثيرون.. لكنها لا تقلل من شأنه.

مترجم.. يسمع مجموعة من العبارات والكلمات ويختزنها مرتبة في ذاكرته ثم ينقلها بلغة أخرى بنفس معانيها، لا يزيد فيها ولا ينقص.. وإلا لأوقع نفسه في أوخم العواقب.. إذاً فاستمراريته، وترقّيه، دليل على إخلاصه وصدقه فيما ينقله سماعاً.. وكان من بين ما سمعه الحديث عما جرى ليلة المصمك.. من صاحب الشأن نفسه، فضمنه كتابه البلاد العربية السعودية» الذي طبع عام ١٣٥٥هـ لأول مرة، أي قبل ١٨ سنة من وفاة المغفور له الملك عبدالعزيز، ومعنى ذلك أن الكتاب وجد في أيدي الناس، وتداولوه في حياة الملك عبدالعزيز، ولو كان هناك أدنى شك في صحة هذه الرواية، ونسبتها إلى الملك عبدالعزيز، لكان قد تطوع أكثر من واحد لإبلاغ الملك عبدالعزيز بهذا التَّقَوُّل عليه.. ولصاح بعض هؤلاء الرفقاء ليلة المصمك، في وجه فؤاد حمزة، لكونهم أدرى منه بتفاصيل ما حدث تلك الليلة.. ولارتفعت أصواتهم إلى الملك عبدالعزيز، إن لم يسبقهم إليه أحد، ليبلغوه بما كتبه فؤاد حمزة مغايراً للحقيقة، ولكانت النتيجة إصدار تعليمات لفؤاد حمزة بتصحيح ذلك.. بل نزلت عليه أشد ألوان اللوم والتأنيب على جرأته في نسبة كلام لم يقل به الملك عبدالعزيز.. وفؤاد حمزة يعلم جيداً مدى غضب الملك عبدالعزيز على من يحاول تغيير الحقائق.. أو اختلاق الأكاذيب.. لكن شيئاً من ذلك كله لم يحدث.. إذن فالرواية صادقة والإسناد فيها صحيح.. إضافة لهذا فإن الكتاب المشار إليه، ظل لفترة ليست بقصيرة، يعتبر من أول المراجع في تاريخ المملكة.. لندرتها وقلتها في ذاك الوقت.. ولا تقاس بما هي عليه الآن من غزارة وتنوع...

نص ما روى على لسان الملك عبدالعزيز

قبل أن نعرض النص الذي ورد على لسان الملك عبدالعزيز، نشير أولاً إلى ما تضمنه من حقائق.. أولى هذه الحقائق: أن العدد الذي ذكره الملك عبدالعزيز

لمن رافقوه من يبرين» إلى أبو جفان ثم ضلع الشقيب هو ستون رجلاً.. لا يزيدون ولا ينقصون، وتأتي الحقيقة الثانية: وهي أنه ترك عشرين رجلاً عند الرواحل في ضلع الشقيب سار بأربعين رجلاً صوب سور الرياض، وبالقرب من السور، وفي المكان الذي دلت كل الشواهد على أنه ترك فيه أخاه محمداً، وهو بستان الشمسية» والذي تحدثنا عنه من قبل، ترك أخاه محمداً ومعه ثلاثة وثلاثون رجلاً وأخذ معه ستة رجال.. ذكر أسماءهم بالتفصيل، وكان هو السابع لهم..

وإذا كان الحديث متضمناً تحديد العدد على وجه التعيين، لا التقريب، وعلى الوجه المفصل في تقسيمه إلى مجموعات محددة كما أشرنا، فلا مجال إذن للاجتهادات مهما كان سندها، أو إضفاء تبريرات لعدد مخالف لهذا، زيادة أو نقصاً.. وتعالوا بنا نستعرض نص الرواية(١٣٩)..

يقول فؤاد حمزة..: ..لا أجد لساناً أبلغ في التعبير عن حوادث القصة الخالدة من لسان الملك نفسه!! (هكذا) فقد تحدث عن هذه المجازفة الخطيرة بكلام بسيط، سمح، ننقله فيما يلي:

أخذنا أرزاقنا، وسرنا وسط الربع الخالي، ولم يدر أحد عنّا أين كنا!!.. (في هذا إشارة إلى التمويه، خلال فترة السكون في يبرين) فجلسنا شعبان بطوله إلى عشرين رمضان (انظر إلى طول المدة التي قضاها في يبرين فقط، بخلاف المدة التي شن فيها الإغارة على القبائل الموالية لابن رشيد، منذ أن خرج من الكويت في أواخر جمادى الآخرة، كما أشرنا من قبل.. إذن فلا أصل للقول

---

(١٣٩) سوف نضع قوسين فيما نورده من تعليق على النص أثناء سرده، تحاشياً لأي خلط، أو تداخل للنص مع التعليق. ونسوق النص كما هو؛ دون تصويب لغوي.

بأنه خرج مسرعاً من الكويت إلى الرياض، فوصلها بعد عشرة أيام، أو أقل أو أكثر) ثم سرنا إلى العارض، كانت رواحلنا رديّة.. (دليل على المعاناة..) ولم نرد أبو جفان الواقع على طريق الحسا إلا لأيام العيد، فعيدنا رمضان عليه (أي عيد الفطر..).. سرنا منه ليلة ثالث شوال، حتى صرنا قرب البلد (أي الرياض) وكان ابن رشيد هدم سور البلد، والمحل الذي يقيم فيه الأمير المنصوب من قبله (أي من قبل ابن رشيد، وهو ابن عجلان) يقع في قصر للإمام عبدالله (ابن الإمام فيصل بن تركي) هدمه ابن رشيد، وأبقى فيه القلعة المسماة بـ«المُصْمَك»[١٤٠] وكانت لنا بيوت للعائلة (أي لآل سعود) أمام المصمك، هدمها ابن رشيد أيضاً، وعملوا حول بعضها سوراً ثانية، وصار فيها بعض حرم للأمير، وخدمه، فإذا جاء الليل حاصروا في القلعة (أي حصروا أنفسهم في القلعة، بمعنى تحصنوا فيها وأغلقوها عليهم، زيادة في الحيطة والحذر!!.. ويبدو أنهم كانوا يخشون حتى أهل الرياض.. وإلا فمهمتهم حراسة المدينة كلها، من خلال السور المحيط بها، ويستنتج من هذا أيضاً أن حراس الأبراج المقامة على السور، كانوا يغلقونها على أنفسهم خوفاً وحذراً.. وهذا يدلنا على أنهم كانوا مكروهين من قِبَلِ أهل الرياض).. وعقب طلوع الشمس يخرجون إلى حرمهم وإلى البلد!! فنحن مشينا حتى وصلنا محلاً اسمه ضلع الشقيب[١٤١] يبعد عن البلد ساعة ونصف للرّجْلي، هنا (أي في ضلع الشقيب) تركنا

---

(١٤٠) في الكتاب :المسمك بالسين، وهو صواب أيضاً، لكنه بالصاد أكثر شهرة واستعمالا، انظر معجم اليمامة لابن خميس ج٢ ص٣٧٢. وهنا إشارة صريحة بأن المصمك كان ملحقاً بقصر الإمام عبدالله بن فيصل، وغالباً هو الذي بناه أثناء بنائه لقصره.

(١٤١) في الكتاب ضلع الشعيب» بالعين بدل القاف، وقد أشرنا من قبل إلى أن هذا خطأ..

رفاقنا.. وجيشنا.. ومشينا على أرجلنا الساعة السادسة ليلاً[١٤٢] وتركنا عشرين رجلاً عند الجيش (أي عند الرواحل والعتاد، في ضلع الشقيب.. فلا أساس ولا حجة لمن عدّهم أقلَّ من ذلك.. طالما أن العدد هنا واضح وصريح ومحدد!!..) والأربعون مشينا، لا نعلم مصيرنا ولا غايتنا (أي أنه لم يكن لهم دليل، أو مرشد، أو اتفاق مسبق مع أحد من أهل البلد، أو غيرهم، سوى اعتمادهم على الله ثم على أنفسهم.. فهل سينكشف أمرهم أثناء تحركهم، وقبل الوصول إلى غرضهم، أم أنهم سينجحون في تحقيق غايتهم.. أسلموا أمرهم إلى الله!! ثم تقدموا في إصرار.. وتلك لحظة من أشد اللحظات هَوْلاً لامتحان النفس البشرية واختبارها بالإقدام على الموت.. فيما لو تردد واحد منهم فقط، أو ظهر عليه الخوف والجزع وصدرت منه حركة، لا إرادية، ينكشف أمرهم بسببها، فتؤدي بهم جميعاً إلى الهلاك.. أو يستيقظ على أثرها أحد الحراس مثلاً. أخذوا يتحركون دون أدنى صوت.. ويكتمون أنفاسهم، وكأنهم يغوصون تحت الماء.. وتأكيداً لهذا يقول) ولم يكن بيننا وبين أهل البلد أي اتفاق (الواقع أنه لم يكن هناك اتفاق بينه وبين أهل الرياض.. لكن الدلائل والمؤشرات تؤكد أن أهل الرياض كانوا يميلون بل يتمنون أن يعود لهم حكم آل سعود.. بدليل أنهم عندما استيقظوا على نبأ الاستيلاء على المصمك، أقبلوا فرحين معلنين ولاءهم وطاعتهم.. ووقفوا خلف عبدالعزيز، لا ضده، ولم يثبت أن قاوم أحد من أهل الرياض، أو أعلن رفضه للحكم الجديد!! مع أنهم كانوا يعرفون أن ابن رشيد لن يسكت على هذا الوضع،

---

(١٤٢) بالتوقيت الغروبي، وكانت توافق الساعة الحادية عشرة ليلاً بالتوقيت الزوالي، وقد ذكرها أمين الريحاني في تاريخ نجد ص ١٢٤، الثالثة عربية، التاسعة ليلاً بالتوقيت الزوالي، ويبدو أن الزركلي نقلها عنه كذلك (انظر شبه الجزيرة ص ٨٩).

وأنه لابد من قدومه لمحاسبتهم، كما حدث في المرة السابقة، عقب موقعة الصريف، وقد يكون العقاب أشد صرامة وهولاً.... ومع ذلك فقد اندفعوا خلف عبدالعزيز.. وإلى الأبد!!

بعد أن أقبلنا على البلاد (أي الرياض) أبقيت محمداً أخي، ومعه ٣٣ رجلاً، من خوايانا (أي لا أكثر ولا أقل من ٣٣ رجلاً!!) ومشينا، ونحن ٧ رجال (وهنا فقط نراه يذكر بالتحديد أسماء هؤلاء السبعة.. وكأني أتوسم، فيما يتداعى إلى الخاطر. أن هؤلاء السبعة، هم ذروة المخاطرة، ومقتحمو الأهوال، ووقود التضحية فيما لو انكشف أمرهم.. والمدهش أنه يتقدم هذه الذروة.. ضارباً أعظم مثل في القيادة الميدانية، حين يتقدم القائد جنوده، ويقول لهم اتبعوني.. لا أن يجلس مختبئاً خلف الصفوف ويقول لهم تقدموا!! فارق شاسع بين الحالتين.. هو الفارق غالباً بين النجاح والفشل.. كانت هذه هي حالة عبدالعزيز في كل حروبه، فكان النجاح حليفه. ثم يذكر أسماء السبعة قائلاً: أنا، وعبدالعزيز بن جلوي، وفهد (ابن جلوى) وعبدالله بن جلوي، وناصر بن سعود، ومعنا المعشوق، وسبعان من خدامنا (يلاحظ هنا أن الملك عبدالعزيز، عندما ذكر أسماء السبعة، قد ذكر اسم اثنين من خدامه، ولم يبخسهما حقهما في التسجيل التاريخي، أو يغفل ذكرهما، كما أغفل البعض ذكر أسماء الخدام.. وتلك من محاسنه رحمه الله.. يعرف مقدار الرجال.. ويزنهم بأعمالهم لا بأحسابهم) افتكرنا ماذا نعمل؟.. (أي أن هؤلاء السبعة، بعد أن تخطوا السور من إحدى الثغرات التي كانت مهدمة فيه، وتسللوا صوب بيت ابن عجلان المواجه للمصمك، ظناً منهم أنه يبيت فيه مع حريمه، فوجدوا أن البيت يصعب تسلقه، عندئذ فكروا ماذا يصنعون؟.. وهذا يعطينا دليلاً على أن التخطيط لتسلق جدار البيت، وما يلزم من حبال أو جذع شجرة مثلاً، لم يكن وارداً في الحسبان، قبل وصولهم إلى البيت، ومعاينة جدرانه.. ولذا فكروا ماذا يصنعون؟ وبمعنى آخر لم تكن في ذهنهم فكرة

واضحة من قبل عن طريقة تسلق البيت!! ولذا هداهم تفكيرهم إلى الوصول إليه من البيت المجاور له.. ومن ثم قال): فوجدنا بيتاً بجانب الحصن الذي فيه حرم منصوب بن رشيد (أي ابن عجلان) كان صاحب البيت يبيع البقر، وهو رجل شايب اسمه: جويسر، للآن حي[١٤٣] (يفهم من هذا أنهم كانوا يعرفون الرجل، ويعرفون شغلته من قبل، وهو أيضاً يعرف الملك عبدالعزيز، وأهل بيته يعرفون جلالته كذلك، ومع ذلك لم يحاول أحد من المؤرخين مقابلة جويسر هذا، لسؤاله عن شعوره في تلك الليلة، ويدوّن كل ذلك!!) وكانت له بنات يعرفنني، بسبب مجيئي الأول للرياض (أي في العام السابق لهذا) يوم الصريف ..كان (يوجد) واحد اسمه: ابن مطرف يخدم عند رجاجيل ابن رشيد في القصر.. دقيت الباب، فخرجت إحدى البنتين، والباب مصكوك (أي أجابت على الطارق من خلف الباب) وقالت: من أنت؟!.. قلت: أنا ابن مطرف، أرسلني الأمير عجلان، يريد من أبيك أن يشتري له باكر بقرتين، وأريد أن أقابل أباك. قالت: ما تخسى يا ابن الملعونة!! هل أحد يضرب باب على نساء في الليل إلا وهو يبغى الفسق!.. اخرج رح!.. قلت: هين، أنا الصبح أقول للأمير، وهو يذبح أبوك!.. لما سمع أبوها الكلام خرج مرعوباً، وفتح الباب، وكان خائفاً، فلما فتح الباب مسكته، وقلت: اسكت ياخبيث!. (عندئذ) عرفني الحريم، وصحْنَ: عمّنا.. عمّنا.. فقلت: بس.. بس.. (فهو لا يريد الأصوات تعلو حتى لا يتنبه أحد من الجيران).. مسكنا الحريم، بنات جويسر، ووضعناهم في الدار (أي إحدى غرف البيت) وقلت: صكوا عليهما.. أما والدهما، فإنه خاف وهرب من البيت، ونحن نظنه محبوساً. (إن هذا الرجل، الذي أصيب بالهلع، والخوف، يستحق التقدير، فمع أنه هرب، وخرج من المدينة، واختبأ

---

(١٤٣) يقول الزركلي في هامش كتابه شبه الجزيرة ص ٩٨ إنه كان حياً سنة ١٣٥٤هـ (١٩٣٥م).

خارجها حتى مطلع الشمس، إلا أنه لم يتجه، حين هرب، إلى قائد الحصن لينبهه بما رآه.. أو حتى إلى أحد الجنود بحراسة الأبراج في السور مثلاً.. وينال بذلك أعظم المكافأة لدى الحاكم وابن رشيد.. لكنه لم يفعل شيئاً من ذلك.. وفضل الهرب، تاركاً هؤلاء يصنعون ما يودون صنعه.. وما يتمنى هو أيضاً نجاحهم فيه.. فإن نجحوا تكون له يد عندهم؛ لأنه لم يفش سرّهم، وإن لم يفلحوا لا يكون ذلك بسببه أو عن طريقه.. لذا خرج من المدينة خائفاً.. يترقب(!) هرب واختبأ في ضلع البديعة[١٤٤] والحريم ظلوا في الغرفة محجوزين، ورأينا بعد ذلك أننا ما يمكن نطمر (نثب ونقفز) من هذا البيت إلى بيت عجلان، ووجدنا أنه يوجد بيت وراءه، فيه حرمة وزوجها، فقفزنا من هذا على البيت الثاني، ووجدنا الحرمة نائمة مع زوجها، لففناهما بالفراش، وهما نائمان، وأدخلناهما إلى دار وسكرناها، وتهددناهما بالذبح إن تكلّما (بعد ذلك) أرسلنا عبدالعزيز، وفهد بن جلوي إلى أخي محمد خارج الديرة (أي في بستان النخيل الذي اختبئوا فيه) وجاء ورفاقه... دخلنا البيت، (المفهوم من هذا، أن المقصود هو البيت الذي بين بيت جويسر، وبيت عجلان) واسترحنا قليلاً، إلى أن تحققنا أن خبرنا لم يفتضح بعدُ.. (ثم) أبقيناهم (أي محمد ومجموعته) في البيت، ونحن الآخرون نركب بعضنا فوق البعض الآخر (يظهر من ذلك أن سطح بيت عجلان كان أعلى من سطح البيت المجاور، الذي هم فيه، ربما لأنه كان مكوناً من طابقين، وهذا من طابق واحد) وحوّلنا على بيت عجلان، ونزلنا إلى داخله، وكانت معنا شمعة، فطفنا في البيت قبل أن نجيء إلى محل نوم عجلان (ربما للتأكد من عدم وجود أحد من الحراس بداخله،) ثم مسكنا الخدم الذين فيه وحبسناهم في دار (أي غرفة

---

(١٤٤) أصبحت البديعة، فيما بعد حياً من أحياء الرياض، والآن، وبعد الطفرة الهائلة لاتساع المدينة؛ أصبحت البديعة أحد أحياء وسط المدينة المنسقة في مبانيها وشوارعها.

من غرف بيت عجلان) وصكّينا عليهم.. ثم مشينا إلى محل نوم عجلان، وخلينا خمسة عند الباب، وواحد معه الشمعة، وأنا دخلت (يلاحظ أنه يتقدمهم في كل خطوة غير هيّاب ولا وَجِل. وقيل إن الذي كان يحمل الشمعة هو عبدالله بن جلوي)[١٤٥] وفي البندقية فشكة (رصاصة).. فلما أقبلت وجدت عجلان نائماً مع زوجته، فرفعت الغطاء (من على وجههما للتأكد من شخصية عجلان، لأنه هو المقصود لا زوجته.. فامرأته لا ذنب لها حتى تؤخذ بجريرة زوجها!! فالتحري مطلوب قبل توقيع العقوبة على المذنب..) وعندها تحقق لي خيبة ظني، وأنه ليس بعجلان، والحرمة زوجة عجلان.. وإنما هي وأختها نائمتان معاً (لم تشعرا بوجوده، فقد كانتا تغطان في نوم عميق.. عندئذ أخرج الرصاصة من البندقية) أخذت الفشكة من البندق، وأخرجتها، ثم وكزت الحرمة، فنهضت فلما رأتني صرخت!!: من أنت؟.. (وهذا أمر طبيعي، يصاب المرء بالفزع عندما يصحو من نومه، ويفتح عينيه فتقعا في الوهلة الأولى على شخص غريب عن البيت!! فما بالك بامرأة تجد رجلاً، حتى ولو كانت تعرفه من قبل!).. فقلت: بسّ أنا عبدالعزيز (كيلا تصيح، وتنبه بصياحها حراس المصمك المجاورين للبيت) أما هي فكانت تعرفني.. وأبوها وعمها خدام لنا، وهي من أهل الرياض[١٤٦] قالت: ماذا تريد؟ قلت: ادوّر رجلك يا فاجرة.. ياللي تاخذين شمر.. (أي تتزوجين رجلاً من شمر) قالت: أنا غير فاجرة: أنا ما أخذت شمر إلا يوم تركتني أنت (أي بعد أن تركهم آل سعود

---

(١٤٥) هـ.س. ارمسترنج - المصدر السابق - نفس الفصل..

(١٤٦) ذكر الزركلي في كتابه - شبه الجزيرة - ص ٩١، ٩٣ أن اسمها لولوة وقال وسماها خالد الفرج موضي خطأ.. وذكر هـ.س. ارمسترنج في كتابه ابن سعود عاهل شبه الجزيرة العربية». الفصل العاشر أن اسمها مطلبة وفي هامش كتاب توحيد المملكة العربية السعودية» ص ٤٥ للشيخ محمد المانع أنها كانت من أسرة الحمد، من أهل الرياض، ويقال إنها أخت للملك عبدالعزيز من الرضاعة.

في الرياض ورحلوا عنها وهذا يدلل على أن أهلها كانوا من أتباع آل سعود) ويش جايبك؟.. فقلت: أنا جيت أدوّر رجلك لأقتله.. قالت: أما زوجي فلا ودّي تقتله.. انظر إلى مدى وفاء المرأة لزوجها في موقف المواجهة الحاسم، والذي يمكن أن يتطور فتكون هي الضحية.. بسبب قناعتها ببراءة زوجها من أي عمل ارتكبه غيره.. إنه الوفاء المطلوب من كل امرأة في حق زوجها.. (ويبدو أن عبدالعزيز قدر فيها هذا الموقف، وإخلاصها لزوجها، حتى ولو كان عدوه.. نلمس ذلك من هدوء غضبه عليها، وخفة لهجة الحديث، والحوار بينهما بعد ذلك، والذي تبين منه أيضاً أنها تخاف على عبدالعزيز أكثر من خوفها على زوجها..).. وأما ابن رشيد، وشمر، فودي تقتلهم جميعاً.. ولكن كيف تقدر على زوجي؟؟.. زوجي محصن في القصر.. ومعه ثمانين رجل، ويمكن لو طلع عليك، أخاف ما تقدرون تنجوا بأرواحكم، وتخرجوا من البلاد.. تكلمت عليها، وسألتها عن وقت خروج زوجها من الحصن.. قالت: إنه ما يخرج إلا بعد ارتفاع الشمس بثلاثة أرماح.. أخذناها وصكينا عليها مع الخدم.. ثم أحدثنا فتحة بيننا وبين الدار التي فيها أخي محمد ودخلوا علينا. (أي انتقلوا إلى بيت عجلان من البيت الذي كان بين بيت جويسر وبيت عجلان).

(ربما يقول البعض: لم هذه الفتحة، وما تحدثه من أصوات قد تثير انتباه أحد؟! ونقول إن صعود ثلاثة وثلاثين رجلاً على ظهر بعضهم للقفز من البيت المجاور إلى بيت عجلان، قد يكون أشد إثارة، وتنبيهاً لبعض الحراس القابعين على ظهر الحصن فيما لو أحدث أحدهم جلبة، أو ارتطاماً وقت الصعود والقفز، أو حتى احتكاك بنادقهم ببعضها.. أما إحداث ثقب في جدار مبني من الطين واللّبن، فلا يأتي بصوت مرتفع، وقد نجحوا في ذلك نتيجة حرصهم البالغ..) كان الليل عندئذٍ الساعة التاسعة والنصف، والفجر يطلع على الواحدة وذلك بالتوقيت الغروبي، ويلاحظ أن المدة التي استغرقوها

في إنجاز هذه الأعمال منذ تحركهم من ضلع الشقيب، حتى وصولهم لهذه المرحلة، هي ثلاث ساعات ونصف، وهي فترة زمنية يسيرة قياساً بالأحداث التي تخللتها، والأعمال التي أنجزوها.. وهو تخطيط وضعه منذ البداية معتمداً فيه على عنصري، السرعة، والمفاجأة.. في إطار التمويه والخداع)...

فلما اجتمعنا في المحل (أي بيت ابن عجلان) استقرّينا، وتقهوينا، وأكلنا من تمرٍ معنا.. ونمنا قليلاً، ثم صلينا الصبح (انظر في مقابلة صعوبة الموقف، الذي يدعو إلى القلق والاضطراب وتوتر الأعصاب.. تجد الهدوء، والسكينة، والوقار، والإيمان الذي استقر في الأعماق، فلم يشغله هول الموقف عن آداء فرائض الله.. في مواقيتها.. كما أن إيراد السرد على هذا النحو لا يؤكد أنهم ناموا جميعاً، وقد يكونون تناوبوا النوم، لذا لا ينبغي أن يفهمه أحد على أنه مبالغة في وصف الأحداث[١٤٧] وجلسنا نفكر ماذا نعمل؟.. قمنا وسألنا الحريم: من الذي يفتح الباب للأمير إذا جاء؟ قالوا: فلانة.. فعرفنا طولها، فلبسنا رجلاً منا لباس الحرمة التي تفتح الباب (وليس في هذا عيب في مثل تلك المواقف، فالحيلة مطلوبة.. وقد تغلب الحيلة شجاعة الشجعان[١٤٨] وقلنا له: استقم عند الباب، فإذا دق عجلان افتح له ليدخل علينا.. رتبنا هذا وصعدنا إلى فوق، في غرفة فيها فتحة، نشوف باب القصر، وبعد طلوع الشمس فتحوا

---

(١٤٧) انظر إلى تعليق الأستاذ محمد جلال كشك في كتابه السعوديون والحل الإسلامي» ص ٢٧٨ الطبعة الثالثة ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

(١٤٨) في ذكريات الأمير سلمان بن محمد - السابق الإشارة إليها - أن الذي تم اختياره للبس هذه الملابس هو: سعد بن بخيت.. ويقول أيضاً: إن الملك عبدالعزيز أعطاه تعليمات؛ بأن يفتح له الباب ثم يغلقه بمجرد دخول ابن عجلان، وتطبق عليه ونحن معك.. كما جعل جار الله الشامري، ومناور العنزي، يقفان بأسلحتهما خلف الفرجة التي تطل منها زوجة عجلان على ساحة القصر ومدخل المصمك، وكانت تعليماته لهما، بأن يطلقا النار على الحراس بمجرد أن يريا عبدالعزيز ومن معه؛ للحيلولة بين إغلاق الحراس لباب المصمك..

باب القلعة.. وخرج الخدام على العادة إلى أهلهم، لأنهم كما ذكرنا، أصبحوا حذرين، من يوم سطوتنا الأولى، ثم فتح باب القلعة وأخرجوا خيولهم، وربطوها في مكان واسع، (وهنا لم يتمالك عبدالعزيز نفسه) لما رأينا باب القلعة مفتوحاً نزلنا لأجل أن نركض للقلعة، وندخل القصر بعد فتح الباب (خشية أن يغلقوه ثانية دون أن يخرج عجلان).. بنزولنا خرج الأمير، ومعه خدمه، قدّ عشرة رجاجيل، قاصداً بيته الذي نحن فيه، وبعد خروجه أقفل البواب بابه، وراح لأسفل القصر، وترك الفتحة (الخوخة الصغيرة الموجودة وسط الباب الكبير للمصمك).. نحن عند نزولنا أبقينا أربعة بواردية، وقلنا إذا رأيتمونا راكضين، أطلقوا النار على الذين عند باب القصر، فلما ركضنا كان عجلان واقفاً عند الخيل، فالتفت مع رفاقه، ولكن هؤلاء الرفاق ما ثبتوا، بل هربوا للقصر، وحينما وصلنا إليه، كان الجميع دخلوا ما عدا الأمير عجلان، هو وحده (الحراس أول من يهربون... ما أعظمها من مفاجأة!.. أربكتهم جميعاً، وشلّت تفكيرهم، في اللحظات الأولى.. ففقدوا فيها السيطرة على الموقف.. مع كثرة عددهم وعدتهم.. ولم تمكنهم بعد ذلك من استعادة السيطرة؛ لأنهم فوجئوا بها كصاعقة تنزل عليهم، على باب الحصن الذي كانوا يحتمون فيه من غزو الغزاة.. والذي تَحُول بينه وبين الوصول إلى عتبة المصمك أشياء عديدة منها سور المدينة، ومقاومة الجنود الذين حوله، والأهالي، أما أن تنزل المفاجأة أمام أعتاب المصمك، وبهذه السرعة الخاطفة، فأمر لم يخطر لهم على بالٍ.. لذا غاب وعيهم.. وانشل تفكيرهم.. وفقدوا السيطرة على زمام الموقف، لعدة لحظات كانت كفيلة بأن يعتلي عبدالعزيز زمام الموقف، وهي البراعة في تخطيط عبدالعزيز، وتفكيره كما أشرنا في البداية).. أما أنا فلم يكن معي غير بندقي، وهو (أي ابن عجلان) معه سيفه، ردّ لي السيف، وهو يومي بالسيف، ووجه السيف ما هو طيِّب، غطيت وجهي، وهجمت بالبندق.. فثارت (أطلقت طلقة منها).. وسمعت طيحة السيف في

الأرض (أي أن سيفه سقط من يده).. يظهر أن البندق أصابت عجلان.. ولكنها لم تقض عليه.. فدخل من الفتحة (أي حاول الدخول من الخوخة، الباب الصغير الذي كان ما يزال مفتوحاً حتى هذه اللحظة) ولكني مسكت رجليه، فمسك بيديه من داخل، ورجلاه بيدي، أما جماعته فقاموا يرموننا بالنار، ويضربوننا بالحصى أيضاً (عندئذٍ) ضربني عجلان برجله على شاكلتي (الخاصرة) ضربة قوية، أنا يظهر أنني غشيت من الضربة، فأطلقت رجليه، دخل، بغيت أدخل، فأبى علي أخوياي، ثم دخل عبدالله بن جلوي، والنار تنصب عليه، ثم دخل العشرة الآخرون، فتحنا الباب على مصراعيه، وجماعتنا ركضوا لإمدادنا، وكنا أربعين، والجماعة الذين أمامنا ثمانين، ذبحنا نصفهم، ثم سقط من الجدار أربعة وتكسروا، والباقون حاصروا في مربعة، ثم أمنّاهم فنزلوا، وأما عجلان فذبحه ابن جلوي (عندما دخل خلفه، بعد أن تمكن من الإفلات من يد الملك عبدالعزيز، ومرق من الباب الصغير، الخوخة، وعند مروقه قذفه فهد بن جلوي برمح كان في يده فأخطأه، وثبت نصله في الباب).. ثم جاءنا أهل البلد فأمنّاهم.. وسكنا يومنا وليلتنا.. (بغرض الاستراحة، وترتيب الأمور) ثم شرعنا في بناء السور.. وأركبنا ناصر بن سعود بالبشارة لمبارك ووالدي بالكويت، وطلبنا منهما المدد.. (قيل وصلها يوم ١٩ شوال سنة ١٣١٩هـ، وبشرهم بهذا الخبر.[١٤٩]

وبشيء من التفصيل يقول هـ.س. ارمسترنج[١٥٠] عندما فتحت البوابة وخرج منها عجلان يتبعه حراسه، وتقدم في اتجاه الجياد، نادى ابن سعود على رجاله ثم انطلق هابطاً الدرج، ومنه إلى خارج البيت، ثم الساحة، ثم اندفع كالسهم بصيحة مدوية، نحو عجلان، الذي استدار بسرعة شاهراً سيفه، وهوى به

---

(١٤٩) الشيخ خزعل - المصدر السابق - ص ١٧٦.

(١٥٠) هـ.س ارمسترنج - المصدر السابق - الفصل الرابع.

عليه، وتلقى ابن سعود الضربة ببندقيته، ثم أطلق عليه النار، فأصابه في ذراعه إصابة أسقطت سيفه، واشتبك مع عجلان في عراك حتى سقط كلاهما على الأرض، وهما يتصارعان، وتبعثر الحراس، واندفعوا نحو الحصن، وهاجم أحدهم (أحد الحراس) ابن سعود، فعاجله ابن جلوي بطعنة قاتلة، وقاوم عجلان بشراسة، ثم جرى نحو البوابة، ولحق به ابن سعود، وأمسك برجليه، وهو يهم بدخول البوابة، وتمكن عجلان من تخليص إحدى رجليه، ثم ركل ابن سعود ركلة قوية في خاصرته، جعلته يتلوى ألماً، حتى تركه، فجذبه أحد حراسه إلى مدخل البوابة، ثم حاول إغلاقها.. غير أن ابن جلوي، ومعه ثلاثة رجال تكوموا عليها حتى فتحوها[١٥١] وكان عجلان يجري في اتجاه المسجد، عبر فناء الحصن.. وفي أثره ابن سعود وابن جلوي، فعاجله ابن جلوي بضربة أجهزت عليه عند درج المسجد.. وكانت الحامية تفوقهم عدداً بكثير، وسقط رجلان من جانب ابن سعود، وأصيب أربعة آخرون بجراح بالغة...

ويقول الأمير سعود بن هذلول[١٥٢]: قتل من أتباع عبد العزيز اثنان فقط هما: زيد بن زيد، وفهد بن الوبير، وجرح ثلاثة هم: عبدالعزيز بن مساعد بن جلوي، وإبراهيم النفيسي، وصالح بن سبعان..

من خلال السرد السابق لما رواه فؤاد حمزة على لسان الملك عبدالعزيز، يتبين من ظاهر النص أن الرياض تم استردادها يوم ٤ شوال سنة ١٣١٩هـ، وهو قول

---

(١٥١) فيما رواه الأمير سلمان بن محمد من ذكرياته عن الملك عبدالعزيز، أن أول من طمر (دخل) من الفرجة (الخوخة وهي الباب الصغير الموجود حالياً في وسط البوابة الكبيرة) هو: عبدالله بن جلوى، ثم ابن عجيبان، ثم ابن فرحان، وتبعهم الملك عبدالعزيز..

(١٥٢) انظر تاريخ ملوك آل سعود» ص ٦١.

قال به بعض المؤرخين[١٥٣] استناداً إلى أن الملك عبدالعزيز ورفاقه تحركوا من أبو جفان ليلة الثالث من شوال، فوصلوا إلى ضلع الشقيب وبعد أن تركوا فيه الرواحل والأمتاع، تحركوا منه في الساعة السادسة ليلاً بالتوقيت الغروبي، أي الحادية عشرة ليلاً بالتوقيت الزوالي، فوصلوا إلى خارج أسوار الرياض بعد ساعة ونصف تقريباً، ثم تسللوا إلى داخل الرياض في نفس الليلة، التي انتهت بطلوع فجر يوم الرابع، الذي تم فيه الاستيلاء على الحصن، ومن ثم استرداد الرياض.. لكن كثيراً من المؤرخين[١٥٤] قالوا: إن استرداد الرياض تم يوم ٥ شوال سنة ١٣١٩هـ، ذلك أن الملك عبدالعزيز عندما تحرك ليلة الثالث من أبو جفان ووصل إلى ضلع الشقيب لم يواصل السير إلى الرياض في نفس الليلة، وإنما أناخ رواحله، وظل كامناً في ضلع الشقيب بقية ليلة الثالث ونهار الرابع، ثم تحرك ليلة الرابع من ضلع الشقيب في السادسة مساء بالتوقيت الغروبي، زاحفاً صوب الرياض.. ومع أن رواية فؤاد حمزة لم تثبت هذا، لكنها في الوقت نفسه لم تنفه..

ولعل ما يرجح وجه الصواب بين القولين، هو النظر بتأمل في المسافات بين تلك الأماكن، والوقوف على ما تستغرقه من زمن لقطعها سيراً بالإبل، فالمسافة بين الرياض، و«أبو جفان الموجود على الطرف الغربي للعرمة، والقريب نوعاً ما من الدلم جنوب الخرج، هي حوالي مائة كيلومتر، والمسافة بين أبو جفان و«ضلع الشقيب حوالي ٨٥ كيلومتر، ولو فرضنا أن الإبل

---

(١٥٣) من بين الذين قالوا بذلك الشيخ إبراهيم بن صالح بن عيسى في كتابه عقد الدرر ص ١٠٤، وكتابه تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد» ص ٢٠١، والأستاذ أحمد عبدالغفور عطار - صقر الجزيرة - ج١، ص ٢٥٤..

(١٥٤) من بين من قالوا بذلك الأمير سعود بن هذلول - تاريخ ملوك آل سعود - ص ٦٢ والشيخ حمد الجاسر - مدينة الرياض عبر أطوار التاريخ - ص ١١٦، وأمين الريحاني، المصدر السابق - ص ١٢٦، والزركلي - شبه الجزيرة - ج١ ص ٩٤، وغيرهم كثيرون.

تحركت من أبو جفان بعد غروب الشمس بساعة مثلاً، كي لا يراهم أحد وهم يتحركون، فهل تصل الإبل إلى ضلع الشقيب، قبل الساعة السادسة ليلاً، وهي الساعة التي تحركوا فيها من ضلع الشقيب صوب الرياض؟.. هذا إذا أضفنا ضرورة بقائهم في ضلع الشقيب لمدة ساعة واحدة، يستريحون فيها قبل مواصلتهم الزحف، وترتيب أمورهم، وإلقاء الملك عبدالعزيز تعليماته لمن بقوا لحراسة الرواحل، وغيرذلك من أمور؟!.. فهل في استطاعة الإبل الردية الهزيلة التي كانت معهم أن تقطع مسافة ٨٥ كيلومترفي حوالي أربع ساعات، سيراً متواصلاً دون توقف ودون إسراع؛ ليتحسسوا الطريق حتى لا ينكشف أمرهم.؟. يبدو أن هذا ليس في مقدور الإبل، ولذا فإنا نميل إلى الرأي الثاني، طالما أن رواية فؤاد حمزة، المشار إليها، ليس فيها ما ينفي عدم المبيت في الطريق، سواء في ضلع الشقيب، أو في غيره، وعلى هذا فإن استرداد الرياض تم فجر يوم ٥ شوال سنة ١٣١٩هـ (١٥ يناير ١٩٠٢م)[١٥٥].

---

(١٥٥) في بعض التقاويم لمقابلة التاريخ الهجري بالميلادي أن يوم ٥ شوال ١٣١٩هـ يقابل يوم ١٤ يناير ١٩٠٢م وهذا يعود لأعمال حسابية تزيد يوماً أو تنقص يوماً بالنسبة لبعض الشهور، انظر تقويم القرون لصالح بن محمد العجيري منشورات ذات السلاسل.

الفصل الرابع

صدى استرداد الرياض محليًا وعالميًا

- صدى استرداد المصمك عند أهل الرياض
- صدى استرداد مدينة الرياض في منطقة نجد
- البيعة لعبد العزيز
- موقف ابن رشيد
- بداية المواجهة بين الخصمين
- صدى استرداد الرياض وجنوبها على الصعيد الدولي

صدى استرداد المصمك عند أهل الرياض

تم الاستيلاء على المصمك باستسلام البقية الباقية من حرّاسه، وتأمينهم على حياتهم[١٥٦] وعقبها أرسل عبدالعزيز بعض رجاله لمن كانوا في الأبراج عند بوابات السور، ليؤمنوهم على حياتهم، ويستولوا على أسلحتهم، ويقاتلوا من يقاوم منهم، ويرفض الاستسلام، وفي الوقت نفسه أرسل فهد بن جلوي، على جواد من خيل عجلان، إلى الذين كانوا عند الرواحل والأمتعة، ليأتي بهم[١٥٧]..

أما أهل الرياض فلا شك أنهم قد سمعوا صوت طلقات الأعيرة النارية.. تشق الفضاء وقت الالتحام أمام المصمك، فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون!!.. لكنهم لم يتبينوا حقيقة الأمر إلا عندما سمعوا صوتاً يعلو مردداً سبحان الملك المعبود، لقد عاد المُلْكُ لآل سعود.. الحكم لله، ثم لعبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل آل سعود.. قد عاد، واستعاد حكم آبائه وأجداده.. وأقبل أهل المدينة فرحين مستبشرين، يهنئونه بالنصر المبين، ويبايعونه، ويشدُّون أزره..

وكل الدلائل تفيد بأنهم لم يكونوا يعلمون بقدومه إليهم، وإقدامه على هذا العمل البارع.. وإن كان لدى بعضهم يقين بعودته في يوم ما.. بعد رحيله إثر معركة الصريف.. لكنهم لم يكونوا يعلمون بموعد عودته إليهم.. وأيّاً كان فإن هذا هو ما كانوا يتمنونه في قرارة أنفسهم.. فقلوبهم وسيوفهم معه.. ولذا أقبلوا مهنئين مبايعين، ولم يثبت أن أحداً من أهل الرياض.. امتنع، أو قاوم ذلك.. مع أنه كان في مقدورهم الامتناع، لو لم يكونوا راغبين فيه، وفي

---

(١٥٦) كان عدد حراس حصن المصمك وقتها ثمانون رجلاً، قتل منهم ستون وبقي عشرون؛ هم الذين استسلموا، وظلوا على قيد الحياة، انظر أمين الريحاني المصدر السابق - ص ١٢٦.

(١٥٧) سعود بن هذلول - المصدر السابق - ص ٦٢.

حكمه لهم.. فكيف يصنع ستون رجلاً، أمام سكان الرياض وقتها، البالغ عددهم عشرة آلاف، أو حتى نصف هذا العدد!.. لكنها آمالهم وأمنياتهم.. قد تحققت، فكانت حفاوة الرعية براعيها، وقد جاءها بنصر مؤزّر.. وتواصل احتفاؤهم لأيام عيد الفطر المبارك بهذا اليوم السعيد..

ثم انطلق مناديه، يجوب شوارع الرياض، ينادي في الناس، بالأمان والضمان لمن جاء مستسلماً من رجال ابن رشيد، ممن يكون قد فرّ، أو هرب إلى أيّ مكان.. وأهاب عبدالعزيز بأهل الرياض ألا يؤذوا أحداً، وألا يؤذوا النساء، أو يستبيحوا حرمتهن.. ثم سكن هو ورجاله، واستراحوا هذا اليوم، وناموا ليلته[١٥٨] واستغرقوها نوما ملء جفونهم، وهم الذين ظلت أعينهم مفتوحة على مدى ثلاثة أشهر أو أكثر، منذ خروجهم من الكويت، كانت الأنفاس خلالها لاهثة، لا يكاد يسمع لها زفير.. والآن تنفسوا الصعداء، بشهيق امتلأت به صدورهم من رحيق الرياض وأزاهيرها.. ليجددوا به النشاط والاستعداد لما هو أكبر.. وأطول.. فالليالي حبالى يلدن كل عجيب.. وهذه هي الخطوة الأولى على الدرب الطويل.. والطريق المحيط بالمخاطر والمصاعب، والمحفوف بالأشواك.. والأسلاك وأسنة الرماح المدببة، التي لا تحطمها، ولا تصهرها إلا قوة فولاذية.. فلا يلين الحديد إلا الحديد.. وكأني به حين أسلم جفونه للنوم في أول ليلة له بالرياض.. سرح خاطره، وراح فكره يحوم ويطوف، قبيل النوم، مستعرضا ما يمكن أن تحمله له الأيام والليالي، في المستقبل القريب والبعيد على السواء.. وما ينبغي أن يتحلى به من صبر، وإقدام على مواجهة تلك المصاعب.. أتراه قد دار بخاطره وقتها ذلك التاريخ الحافل.. في كل المجالات..

---

(١٥٨) فؤاد حمزة - المصدر السابق - ص ٢٤.

وقد كانت وقائعه وحوادثه وقتها أمورا في إطار الغيبيات.. فتمخضت عنها الأيام والليالي فيما بعد، بما بدت فيه بحجم ينوء عن تحمله الرجل العادي..

أصبح عبدالعزيز في اليوم الثاني متجدد النشاط، يرتب شئونه، وشئون المدينة التي أصبح حاكمها، وراعيها، ثم بعث ناصر بن سعود، ممتطيا إحدى الركائب القوية، يقطع القفار والصحاري، إلى والده والشيخ مبارك في الكويت.. يحمل لهما البشرى باسترداد الرياض، ويطلب منهما مددا، فبعثا له أخاه سعد بن عبدالرحمن، ومعه مائتا رجل من أهل نجد، وثلاثمائة بندقية وبعض الذخيرة.. فوصل الرياض بعد شهر[١٥٩] ومعه ناصر بن سعود، وعرف عبدالعزيز أنه لا محالة من مواجهة ابن رشيد، طال الوقت أم قصر، وعليه إذا أن يبدأ بالاستعداد من الآن لتلك الملحمة التي لا مناص منها.. فبدأ بتحصين الرياض، وبناء ما سبق أن تهدم من سورها عام ١٣٠٨هـ عقب موقعة المليداء وعام ١٣٠٩هـ عقب موقعة حريملاء. وسارع الأهالي في إنجاز هذا البناء، في همة ونشاط، وقد جعل عبدالعزيز من نفسه قدوة لهم وقت البناء، فكان يشاركهم في جلب الطوب والطين للبنائين، وذلك بعثا لهم على المزيد من الهمة في إنجاز بناء السور، وتحصين المدينة، حتى تم البناء خلال أربعين يوما[١٦٠] وكان قد بدأ عقب الاستيلاء على الحصن بأربعة أيام فقط، أي قبل

---

(١٥٩) فؤاد حمزة - المصدر السابق - ص ٢٤ - وسعود بن هذلول - المصدر السابق - ص ٦٢، والزركلي - الوجيز في سيرة الملك عبدالعزيز - ص ٣٠، وكذلك ذكريات الأمير سلمان بن محمد - السابق الإشارة إليها - حيث قال فؤاد حمزة أقبل مع سعد بن عبدالرحمن مائة رجل، وبعض الذخيرة، وقال الأمير سعود بن هذلول: أقبل معه سبعون رجلا، بينما قال الأمير سلمان بن محمد: أقبل معه مائتا رجل من أهل نجد، وقد رجحنا رواية الأمير سلمان؛ لأنه كان من المعاصرين لتلك الأحداث، وشاهد عيان لها..

(١٦٠) فؤاد حمزة - المصدر السابق - ص ٢٤ - وسعود بن هذلول - المصدر السابق - ص ٦٢ والمانع - المصدر السابق ص ٥٢.

أن يصل البشير بالخبر إلى الكويت في ١٩ شوال[١٦١]، ولذا لا أساس للقول: إن عبد العزيز تلقى وصية.. أو تعليمات من الشيخ مبارك ببناء السور، وتحصين المدينة[١٦٢] حيث كان آخر عهد عبدالعزيز بالكويت، ومراسلاتها له، هو ذاك الرسول الذي قدم إليه، وهو في يبرين أواخر رجب سنة ١٣١٩هـ، يحمل له رغبة والده والشيخ مبارك بترك ما هو فيه، والعودة للكويت.. لكنه رفض الانصياع لرغبتهما، وقرر الاستمرار فيما هو مقبل عليه.. كما أشرنا إلى ذلك من قبل...

ولعل مصدر الغبطة التي أبداها أهل الرياض.. فأقبلوا على عبدالعزيز مهنئين، ومبايعين له، هو إحساسهم بأنه أقبل إليهم بنفسه.. وليس مدعوما من قوى خارجية، مثلما قدم إليهم في العام السابق، وقت معركة الصريف، فهم يستنكفون الخضوع لحاكم غريب عنهم، أو حاكم يستمد نفوذه، وسلطته من قوة خارجية.. كما رفضوا الخضوع من قبل لخالد بن سعود عام ١٢٥٣هـ، حين أتى به محمد علي باشا.. وأراد أن يفرضه حاكما عليهم.. فقاوموه، مع أنه كان ابن الإمام سعود الكبير، الذي ذاع صيته، وملأت شهرته الآفاق، وكان أيضا شقيق آخر أئمة الدولة السعودية الأولى، الإمام عبدالله بن سعود؛ لأنهم أحسوا بأن الذي يحكمهم هو محمد علي، وما خالد إلا واجهة لهذا الحكم.. لذا رفضوا الانصياع له وقاوموه.. أما عبدالعزيز فهو ابن آخر أئمة آل سعود الذي حكم الرياض مستقلا بها.. فهو المطالب الشرعي للحكم.. وقد ناله، ومكنه الله منه.. دون دعم أو استعانة خارجية، فطاعته إذا واجبة،

---

(١٦١) خلف الشيخ خزعل - المصدر السابق - ج٢، ص ١٧٦، حيث قال: إنه وصلها يوم ١٩شوال ١٣١٩هـ، وأخطأ في إيراد التاريخ الأفرنجي؛ حيث قال: عام ١٩٠١م.

(١٦٢) الرشيد - المصدر السابق - ص ١٧٣.

إضافة لأن هذا كان أمنيتهم، وقد تحققت فكان تأييده إجماعياً من أهل الرياض، العلماء، ورؤساء القوم، وكافة الناس.

صدى استرداد الرياض في الداخل (بمنطقة نجد)

تسامعت البلدان والقبائل المجاورة للرياض بالخبر، فأقبل محماس الهزاني رئيس الهزازنة في الحريق، ومعه ثلاثون ذلولاً، وأقبل أهل الحوطة بمائة ذلول، وأقبل أفراد آل سعود الذين كانوا قد تفرقوا من قبل، وأقاموا في بلدان جنوب الرياض، وعلى رأسهم تركي، وسعود العبدالله آل سعود، وبعد عشرة أيام أقبل أهل العارض، الذين كانوا قد فروا من قبل إلى البحرين، ليقيموا فيها هرباً من بطش ابن رشيد، وكان عددهم سبعمائة رجل.. عادوا بكامل أسلحتهم[١٦٣] وطوال نصف شهر ظلت تأتي إليه القبائل، ورؤساء البلدان الواقعة جنوب الرياض، كما سارع بالعودة كل من كان قد ترك البلاد وهاجر أثناء حكم ابن رشيد[١٦٤] .. ومع وفود هؤلاء وأولئك عليه، فإنه كان يعلم أن الرياض وحدها لا تحميه، ولا بد من التوسع، وكسب الأنصار قبل قدوم ابن رشيد للمواجهة المنتظرة...

في شمال الرياض بلدان كثيرة.. أهلها موالون لآل سعود، في الوشم، وسدير، والقصيم، إلا أن تحركه إليها، وفي أيامه الأولى، ربما يثير نزق ابن رشيد، ويدفعه للتعجيل بالقدوم.. وهو يود تأخيره أكثر وأكثر، حتى يستطيع حشد أكبر عدد من الأنصار لمواجهته، أما جنوب الرياض فهو أكثر ميلاً وأمناً.. ولا يلفت انتباه ابن رشيد، وبعض رؤساء البلدان والقبائل أتو إليه

---

(١٦٣) من ذكريات الأمير سلمان بن محمد، السابق الإشارة إليها.

(١٦٤) من ذكريات الأمير سلمان بن محمد، السابق الإشارة إليها، ج.ج. لوريمر المصدر السابق - ج٧، ص ١٧٠٠.

مؤيدين، وبعضهم ما زال مترددا في إعلان تأييده، خوفا من ابن رشيد، فآثروا التمهل في إظهار تأييدهم لعبدالعزيز.. ترقبا لما تظهره الأيام.. فرأى عبدالعزيز أنه من الضروري أن يذهب إليهم بنفسه.. وذلك عقب الانتهاء من بناء سور الرياض، وتحصينها، وفي نفس الوقت أرسل لوالده في الكويت، يطلب منه سرعة حضوره، ومعه جميع الأهل..

انطلق عبدالعزيز، إلى الخرج، واستولى عليه .. وعلى بعض البلدان الجنوبية، كالحريق والحوطة، والأفلاج، وبلغ وادي الدواسر[١٦٥] وكان يحاول في البداية إقناعهم، وترغيبهم في اتباعه.. وبعضهم يغريه بالمال، والبعض الآخر ممن لا يفيد معه هذا أو ذاك يهدده، يقول فيما رواه عنه فؤاد حمزة: كنت أجلب بعضهم بالسر، وأهدده، ثم أغريه بالمال، والوعود، فيخرج من عندي مادحا لي، قائلا: إنني أبلشته!! (أي شغلته).. ولا حيلة له في دفعي، فلا بد من مساعدتي[١٦٦] وتوطد سلطان عبدالعزيز، فيما بين الرياض والربع الخالي جنوبا، في أقل من ستة أشهر[١٦٧] وجعل في بعضها، قوة من الرجال، وأمراء من قبله، ثم عاد إلى الرياض، ومكث فيها أسبوعا واحدا، ثم اتجه إلى الشمال في أوائل سنة ١٣٢٠هـ فغزا قبائل من قحطان، موالية لابن رشيد، ثم أرسل أخاه محمدا فغزى فخذا من عتيبة، على مقربة من الشعراء[١٦٨] كان مواليا أيضا لابن رشيد.

---

(١٦٥) الزركلي - الوجيز - ص ٣٠.

(١٦٦) فؤاد حمزة - المصدر السابق - ص ٢٥.

(١٦٧) الزركلي - المصدر السابق - ص ٣١.

(١٦٨) الزركلي - المصدر السابق - ص ٣١، وسعود بن هذلول - المصدر السابق ص٦٢.

وفي ١٠ صفر عام ١٣٢٠هـ (١٧ مايو ١٩٠٢م) غادر الإمام عبدالرحمن الكويت، ومعه جميع أفراد عائلته.. متجها إلى الرياض[١٦٩] ولم يفته أن يغزو في طريقه بعض قبائل الظفير و«شمر» من أتباع ابن رشيد، وعلم عبدالعزيز بقدوم والده، فهب لاستقباله، ومعه ٥٠٠ فارس، فكان اللقاء على مسيرة ثلاثة أيام من الرياض.. كان لقاء حارا، أعقبته العودة للرياض، ليدخلاها في يوم مشهود، بعد غياب طالت به الأيام[١٧٠] وذلك في أواخر شهر صفر ١٣٢٠هـ..

البيعة لعبدالعزيز..!!

لقي الإمام عبدالرحمن من ولده عبدالعزيز، ما يلقى الأب من ابنه البار. خاضعا في وقوفه بين يديه، لا يسمع له صوت إذا تحدث والده. يجيب أباه بالسمع والطاعة، لأبيه الصدارة، وله حيث انتهى به المجلس.. وعقب وصول الإمام عبدالرحمن للرياض، تقدم منه عبدالعزيز، وقال له: الإمارة لكم ياوالدي، وأنا جندي في خدمتكم، فأجابه الوالد: "إذا كان قصدك من استدعائي إلى الرياض أن أتولى الإمارة.. فهذا لن يكون!! وليس أمامي إلا أن أخرج منها إذا أصررت[١٧١] . انظر!! لا تقاتل ولا تناحر على طلب الإمارة.. ولكنه الإيثار في أسمى معانيه..

وتدخل العلماء، وذوو الحل والعقد، في الأمر.. لكن الإمام عبدالرحمن أصر على موقفه، وقال: الإمارة لعبدالعزيز.. عندئذ قال عبدالعزيز: إني أقبلها على

---

(١٦٩) خزعل - المصدر السابق - ج٢ ص ١٧٨، ج.ج لوريمر - المصدر السابق ج٧، ص ١٧٠١ غير أنه قال: إن الإمام عبدالرحمن غادر الكويت في ١١ مايو ١٩٠٢هـ(٢ صفر ١٣٢٠هـ)

(١٧٠) الزركلي - المصدر السابق - ص ٣١، وأمين سعيد، الدولة السعودية - ج٢، ص٣٠.

(١٧١) الزركلي - المصدر السابق - ص ٣٢ وأمين الريحاني - المصدر السابق - ص١٢٩.

شرط أن يكون لوالدي الإشراف الدائم على أعمالي.. وصاحب المشورة والرأي الأول، يرشدني إلى ما فيه خير البلاد، ويردّ عني فيما يراه مُضِراً بمصالحها[١٧٢]..

ودعا الإمام عبدالرحمن، إلى اجتماع عام يعقد بعد ثلاثة أيام، عقب صلاة الجمعة في المسجد الجامع بالرياض.. وهي أول جمعة صلاها في الرياض عقب عودته إليها، وفي حضور العلماء، وذوي الرأي، وعامة المسلمين، ومن قدموا للرياض يومها من خارجها، تقدم الإمام عبدالرحمن وبايع ابنه عبدالعزيز بالإمارة.. وأعطاه سيف جده سعود الكبير الذي كانت تتوارثه الأسرة[١٧٣] وتبعه العلماء وذوو الرأي، وكافة الناس، ثم تخلى الوالد لولده عن قصر آل سعود.. لسكناه، وليكون مقراً للإمارة، واختار الإمام عبدالرحمن المنزل الذي كان يقيم فيه عجلان. فأقام فيه[١٧٤] وكان من قبل ملكاً لآل سعود..

موقف ابن رشيد

خلال ذلك كله كان ابن رشيد ما يزال على ماء الحفر، يفاوض الترك، ويطلب منهم تزويده بالمال والسلاح لمهاجمة الكويت، ظناً منه أنها أهم كثيراً بالنسبة له، مما فعله أو يفعله عبدالعزيز، وعندما بلغه نبأ مقتل عجلان، واستيلاء عبدالعزيز على الرياض، تلقى الخبر باستخفاف، وأظهر عدم الاهتمام، وقال لأعوانه كلمته المشهورة.. أرنبة مجحّرة وأهلها مقيمون!! أي

---

(١٧٢) الزركلي - المصدر السابق - ص ٣٢، وأمين الريحاني - المصدر السابق - ص ١٢٩.

(١٧٣) هو سيف جميل، نصله من الصلب الدمشقي، ومقبضه مطليّ بالذهب، والغمد مطعم بالفضة - انظر.. س.هـ. ارمسترنج - المصدر السابق - الفصل الخامس عشر.

(١٧٤) الزركلي - المصدر السابق - ص ٣٢ - وأمين سعيد - المصدر السابق - ج٢، ص٣٠.

أرنب دخلت جحرها، والصيادون واقفون لها بالمرصاد، فلا مهرب لها ولا ملجأ!![١٧٥] وحتى عندما بلغه خبر بناء السور وتحصين الرياض، قال دعوهم يبنون حتى يشبعوا، وسوف نهدم ما يبنونه، في لحظة[١٧٦] .. وظل في موقعه هذا، لم يتزحزح عن الحفر، لمدة أربعة أشهر، يفاوض الترك، وهو يعلل النفس باستعادة الرياض.. وقد أتاح بذلك أعظم فرصة لعبدالعزيز، لكي يحصن الرياض، ويجمع الأنصار، ويكمل استعداداته لملاقاة ابن رشيد[١٧٧] . والفرصة يقتنصها صاحب الرأي الثاقب.. بمجرد أن تلوح في الأفق...

وفي محاولة لتحليل موقف ابن رشيد هذا، نجد أنه أعطى أولوية لاحتلال الكويت، بمساعدة الدولة العثمانية له، وأن حركة عبدالعزيز لا قيمة لها مهما بلغت، وأنه في استطاعته القضاء عليها في أي وقت شاء.. بناء على ثقته بنفسه التي بلغت حد الغرور والكبرياء، والغرور يعمي البصر أحياناً، ويقتل صاحبه.. وقد أظهرت الأيام خطأ تقديره للأمور، فلا الدولة أعطته ما أراد، ولا هو استطاع اصطياد الأرنب المجحرة، وإنما تبين له من أمرها ما لم يخطر له على بال، ووقع هو في الجحر الذي نصبته له الأرنب غير المجحرة!! بل فوجىء بأنها ليست أرنباً، وإنما أسداً ناشب الأظفار، حاد الأنياب.. وعندئذ ندم على ما فرّط، ولات حين مندم..

وأيّاً كان؛ فبعد فترة أدرك ابن رشيد، استفحال أمر عبدالعزيز، فأخباره تنقل إليه بين يوم وآخر، عن طريق الرواحل، والقوافل، وعابري السبيل،

---

(١٧٥) سعود بن هذلول - المصدر السابق - ص ٦٢، والريحاني - المصدر السابق - ص ١٢٧.

(١٧٦) المانع - المصدر السابق - ص ٥٢ - والريحاني - المصدر السابق - ص ١٢٧.

(١٧٧) الريحاني - المصدر السابق - ص ١٢٧.

الذين ينقلون، أو يتحاكون بما يسمعونه، وما يرونه[١٧٨] فأراد ابن رشيد أن يستحث الدولة العثمانية في سرعة تزويده بالمال والسلاح، لمواجهة الوضع الجديد في نجد، زاعماً لها أن مبارك وبريطانيا، خلف حركة عبدالعزيز[١٧٩]، مضخماً ومهولاً لها الأمر، وأنه ليس في مقدوره وحده مواجهته، وأن عليها الإسراع في تقديم المعونة إليه.. من جانب آخر كان يظهر لأتباعه وأعوانه عدم المبالاة بأمر عبدالعزيز.. ثم أوفد رسولاً من قِبله في شهر ذي الحجة سنة ١٣١٩هـ (مارس ١٩٠٢م) إلى والي البصرة، ليخبره بما حدث، وما استجد من أمور في نجد، ويطلب التعجيل بالمعونة، ومكث هذا الرسول في البصرة عدة أيام، إلى أن أخبره المسئولون في النهاية، بأن الدولة لا تستطيع، في الوقت الحالي أن تقدم لابن رشيد مساعدة حربية فعالة[١٨٠] في الوقت الذي حملت إليه الأخبار، أن عبدالعزيز بدأ يغير على البلدان، والقبائل الموالية له في شمال الرياض، وعندئذ قرر ابن رشيد الاعتماد على نفسه، وتحرك من الحفر عائداً إلى حائل، ليجمع الجموع من شمر والقصيم، ومناطق الوشم وسدير، زاحفاً إلى الرياض، وذلك في شهر ربيع الثاني سنة ١٣٢٠هـ (يوليو ١٩٠٢م)[١٨١] ونزل في رغبة من بلدان المحمل، فيما بين ثادق، وبلدة البرقة، وطال مقامه فيها أكثر من شهرين[١٨٢] ربما ليجمع المزيد من القبائل والأنصار والمعلومات عن عبدالعزيز، وفي الوقت نفسه يقطع الصلة بين الرياض والكويت، ثم انتقل من رغبة» إلى الحسا، فمكث فيها نحو

---

(١٧٨) الزركلي - المصدر السابق - ص ٣١.

(١٧٩) خالد السعدون - المصدر السابق - ص ٧٨.

(١٨٠) خالد السعدون - المصدر السابق - ص ٧٩.

(١٨١) أمين الريحاني - المصدر السابق - ص ١٢٨.

(١٨٢) سعود بن هذلول - المصدر السابق - ص ٦٣.

أسبوعين ، ثم عاد إلى حفر العتك الذي بقرب الخفس شرقاً، وانطلق إلىبنبان [١٨٣].

وكان الوقت لدى عبدالعزيز - صاحب الرأي الثاقب، والحس المتوقد - أغلى من الذهب!.. فإن لم يستغله بأقصى طاقته ذهب.. ومتى ذهب وفات.. فقد لا تتاح فرصة كهذه فيما هو آت!

لذا أرسل عبدالعزيز أخاه محمداً، وابن عمه عبدالله بن جلوي، يستحثان، أهل جنوب الرياض، فتبعهما كثير من الدواسر، وآل مرة، وآل شامر، وغيرهم[١٨٤] .. وقد طلب من آل مرة، في أطراف الحسا، القيام بمنع انحدار طوارف ابن رشيد وأتباعه في تلك المنطقة من الوصول إليه[١٨٥]..

لقاء الخصمين..!

كانت أساليب حرب الصحراء، في ذاك الوقت، تتمثل في محاولة التغلب والتفوق على الخصم، إما بمهاجمته على حين غرة، أو بالحيلولة بينه وبين منابع الماء، ومراتع الإبل، أو استدراجه للوقوع في شراك أو كمين، كوسيلة للإطاحة به، والتغلب عليه، والاستيلاء على ما بحوزته من مال وسلاح.. وإذا كان المقصود بلداً من البلدان، فتكون إما بغرض الإغارة للاستيلاء على أكبر قدر من الأموال، ومن ثمَّ الانسحاب منها، وقد تكون بغرض الاستيلاء عليها، وانتزاعها من الخصم.. والدفاع عنها ضد أية محاولة لاستردادها فيما بعد..

---

(١٨٣) الزركلي - المصدر السابق - ص ٣٣.

(١٨٤) سعود بن هذلول - المصدر السابق - ص٦٣، فؤاد حمزة - المصدر السابق ص٢٤.

(١٨٥) سعود بن هذلول - المصدر السابق - ص ٦٣.

وأيضاً من مظاهر البطولة في الحروب الاعتماد على قوة البنية، ومتانة الأجساد، ومدى التحمل عند المجالدة، والبراعة في استخدام السيف والرمح عند التلاحم، يوم أن كان السيف والرمح والسهم وما ماثلها، هي أداة الاقتتال، ووسيلة النصر، أو الهزيمة.. لكن معايير البطولة اختلفت في ظل الأسلحة الحديثة المتنوعة، والمدمرة، والتي تفتك بذوي العضلات المفتولة عن بُعد، ودون تلاحم أو تصادم جسدي، حتى أصبح في مقدور من يجيد استعمال مدفع، أو يقود طائرة مثلاً.. أن يطيح بعدة مئات لا يملكون نفس الأسلحة.. وحلّت البراعة في استخدام السلاح الحديث.. والذكاء في استعماله، محل القوة البدنية والعضلات المفتولة..

والموازنات الدقيقة مطلوبة، عند عمل مقارنة بين طرفين، لإظهار بسالة أي منهما على الآخر، بمعنى تعايش الطرفين.. في عصر، وزمان، ومكان واحد، ومقدرة كل منهما على استعمال أداة الاقتتال.. وإن لم يملكها، أو تفوق أحدهما على الآخر فيها من جهة الكم.. أو من جهة الاستعمال.. عندئذ تكون الموازنات دقيقة..

ومن السابق لأوانه التحدث في هذا البحث عما تميزت به شخصية الملك عبدالعزيز من إجادة للأساليب الحربية - على ضوء معايير عصره، وبيئته الصحراوية، وبالقياس لأساليب حرب الصحراء، التي كانت تعتمد أساساً على إجادة الكر والفر..- من خلال استعراض موقعة واحدة جرت بينه وبين ابن رشيد، وإنما يتأتى - ذلك وبالقياس إلى المعايير السابقة - من خلال استعراض كامل لكل المواقع والحروب التي جرت بينه وبين خصومه، وما أكثرها وعلى مدى ثلاثين عاماً تقريباً.. حتى نستطيع أن نعطي حكماً صائباً من كل الوجوه، للنبوغ والعبقرية والمهارة في إدارة دفة المعارك.. لحروب الصحراء.. حتى أطلق عليه صقر الصحراء» تشبيهاً له في انقضاضه على

خصمه، بانقضاض الصقر على فريسته.. مع ملاحظة أن خصومه، وفي مقدمتهم ابن رشيد، كانوا على قدر كبير من الشجاعة، بلغت بابن رشيد حدّ الهَوَس.

غير أن القاسم المشترك لكل تلك المواقع، كان يتمثل في عنصري، الذكاء، والشجاعة. ومن خلال بحثنا عن توافر هذين العنصرين، نجدهما قد وجدا في أول المعارك، وبشكل واضح رغم عدم التكافؤ في العتاد.. حيث كان يتميز ابن رشيد بالعدد الكبير من الرجال، والسلاح، بينما لا يملك عبدالعزيز نصف تلك القوات، ولا نصف الأسلحة، ولكنه يملك الذكاء، والبراعة، التي رجحت كفته.. ولنتمهل قليلاً لنرى ماذا يكون من أمر هذا اللقاء..

فكر عبدالعزيز عندما تأكد لديه أن ابن رشيد زاحف إلى الرياض.. وانتهى به الرأي إلى أن الرياض لا ينبغي أن تكون ميداناً لذلك اللقاء.. حتى لا يحصر نفسه وحركته داخل أسوارها، بينما في الصحراء متسع للكر والفر .والمناوشات.. والمراوغة، إضافة إلى أنه لو ظل داخل الرياض، فمعنى ذلك أنه سيكون في موقف الدفاع، وهو يود أن يكون مهاجماً يتمتع بحرية الحركة، ويستطيع مراوغة الخصم.. واستدراجه لمكان مهيأ للإيقاع به، أو الالتفاف حوله، وإتيانه من حيث لا يتوقع، أو بمعنى أوضح معرفة نقاط الضعف في الخصم، ومهاجمته منها، وغير ذلك من أساليب تُعرف في الحروب الحديثة بالتكتيكات الميدانية، وهذه كلها أمور لا تتاح له إذا حصر نفسه داخل أسوار الرياض؛ لذا قرر أن يكون اللقاء خارجها، ورأى أنّ أنسب مكان لتلك المقارعة، هو منطقة جنوب الرياض، وليس شمالها أو أي مكان آخر.. ففي الجنوب أنصار وأتباع، والبلدان فيها مهيأة للوقوف بجواره، فلقد أصبح له في بلدة السلمية سرية، تحت قيادة سعد بن عفيصان، وفي

الدلم سرية تحت قيادة محمد السديري (أحد أخوال الملك عبدالعزيز).. وفي عُلية القريبة من حوطة بني تميم يوجد عبدالله بن جلوي، ومعه الكثير من آل شامر، وكذلك في بلدة الحريق، يوجد أخوه عبدالله بن عبدالرحمن، ومعه أهل الحريق(١٨٦) فإذا أضفنا إلى ذلك طول المسافة على قوات ابن رشيد، والبعد عن مراكز تموينه في شمال الرياض، أو حائل، وما يحدثه ذلك من أثر نفسي على المقاتلين، حين يشعرون بأن خطوط تموينهم مقطوعة، أو حتى مهددة بالقطع.. وأنهم أصبحوا شبه محاصرين.. لا شك أن اختيار المكان كان فيه الكثير من الذكاء والفطنة..

لكن كيف يستدرج ابن رشيد إلى جنوب الرياض؟؟ أو بالأحرى إلى المكان الذي اختاره ليكون حلبة للصراع؟ كان ذلك يتوقف على كثير من الذكاء.. والحصافة، وحسن التدبير، وقد كان عبدالعزيز يتحلى بكل تلك الصفات.. على صغر سنه، وقلة تجاربه، قياساً إلى ابن رشيد، حتى أن العقل ليقف مشدوهاً أمام تلك الأعمال، وفي هذه النقطة بالذات، فلقد لجأ إلى أسلوب بثّ الإشاعات، وهو أسلوب يستعمل في الحروب الحديثة، بين الدول الكبرى المتقدمة علمياً في مختلف العلوم والفنون العسكرية، حين تلجأ الدول لتسريب أخبار، ومعلومات خاطئة، بغرض تضليل الخصم وجعله يبني مخططاته وتحركاته على معلومات خاطئة.. فإذا به يقع في شِراكٍ نُصب له..

أرسل من ذهبوا إلى الدرعية وغيرها، وأشاعوا فيها بأن عبدالعزيز اختلف مع والده، وأنه ترك الرياض هارباً إلى الجنوب(١٨٧) وقالوا: إن الإمام راغب في

---

(١٨٦) فؤاد حمزة - المصدر السابق - ص ٢٥.

(١٨٧) الزركلي - شبه الجزيرة في عهد الملك عبدالعزيز - ص ١٣٥، ص ١٣٦، وابن هذلول- المصدر السابق - ص٦٤.

المسالمة، وأن عبدالعزيز خرج مغاضباً له، لأنه لا يرى رأيه.. وقالوا: إن الإمام قرر الأخذ بالأمان لأهل الرياض[١٨٨] وأسرع أحد جواسيس ابن رشيد، الذي كان موجوداً في الدرعية، يحمل تلك الأخبار على جناح السرعة، ونقلها إلى ابن رشيد.. ومع أن ابن رشيد كان قد مضى عليه أكثر من شهرين منذ خروجه من حائل، متنقلاً في عدة أماكن شمال الرياض، ومتباطئاً في الزحف إليها، إلا أنه بمجرد أن وصلته تلك الأخبار الجديدة، تحرك مسرعاً إلى بنبان، التي تبعد عن الرياض ٢٥ كيلو متراً في الشمال الشرقي، ثم زحف إلى الرياض فعرف أنها محصنة، وبها قوة تحت قيادة الإمام عبدالرحمن تدافع عنها، فاندفع خلف عبدالعزيز إلى الدّلم جنوب الخرج، ونزل في نعجان على مسيرة ساعتين من الدّلم.. وكان معه أربعة آلاف مقاتل، ونحو أربعة آلاف ذلول وأربعمائة فارس[١٨٩]...

وكان عبدالعزيز عندما غادر الرياض قد ترك والده للدفاع عنها، ومعه ألف مقاتل من أهلها.. ثم اتجه إلى الخرج، ومنها قصد الحاير، وفيها بلغته أخبار تحرك ابن رشيد نحو الرياض، فخشي أن يحاصر الرياض ولا يأتيه في الجنوب، فتحرك من الحاير ليلاً، حتى التقى بعبدالله بن جلوي، ومن معه في شعيب علية، بالقرب من الحوطة، ثم ترك من معه تحت قيادة ابن جلوي، ملقياً إليهم تعليماته بالاستعداد، وانطلق هو في نفر قليل إلى الحوطة، واجتمع برؤسائهم من بني تميم.. وأخذ يستحثهم على الوقوف معه.. ويرغبهم في ذلك حتى تبعه منهم ثمانمائة مقاتل، وتوافد إليه المقاتلون الآخرون، حتى أصبح عددهم يقارب ألفين.. وبلغه وهو في الحوطة أن ابن رشيد نزل نعجان القريبة

---

(١٨٨) الزركلي - المصدر السابق - ص ١٣٦.

(١٨٩) الزركلي - المصدر السابق - ص ١٣٦، وابن هذلول - المصدر السابق - ص ٦٤، وفؤاد حمزة - المصدر السابق - ص ٢٥.

من الدلم.. فمشى عبدالعزيز بمن معه من الحوطة، بعد غروب الشمس فوصل الدلم بعد ساعتين.. وكان التعب قد أضناه.. والإرهاق بلغ به منتهاه.. يقول الملك عبدالعزيز فيما يرويه عنه فؤاد حمزة(١٩٠):

أما أنا فكان قد مضى علي ٧ أيام ما نمت لا ليل، ولا نهار!! وكانت لي ذلول خفيفة أركبها، ضربتها بالعصا فطاحت!.. فلما طاحت جاء أحد بني تميم وأطاح بناقته علينا! طبعا دون قصد منه.. ومع ذلك لم أبال بما حصل، بالرغم مما كان بي من الألم، والتعب والجوع.. ولما وصلنا البلد - أي الدلم - أدخلت القوم إليها.. وأمرتهم أن يوصدوا الأبواب.. وبعد صلاة الفجر جلبوا لي سمنا، وملحا، ودهنوا به جسدي، وردموني - غطوني - باللحف، ونمت من صلاة الفجر إلى أذان الظهر.. وبعد أن نمت، كنت قد تنشطت (استرد نشاطه). ولم أشعر بالمرض.. ثم خرجت إلى الناس».. كان الستر من الله ألا يعرف ابن رشيد بتوعكه هذا.. فالله حليفه..

كان ابن رشيد قد نزل من قبل نعجان، التي تبعد عن الدلم بحوالي ساعتين، ولم يكن يدري أن عبدالعزيز ومن معه قد نزلوا الدلم ليلا، وعسكروا فيها، فأرسل ابن رشيد، في العصر، سرية نحو الدلم تستكشف الوضع فيها. فخرجت لها خيل عبدالعزيز، وتطاردا.. فانهزمت سرية ابن رشيد إليه في نعجان، تحمل إليه أخبار وجود قوات عديدة لعبدالعزيز في الدلم، وقد يكون هو على رأسها.. وكان عبدالعزيز يحاول أن يعرف كل شيء عن ابن رشيد، وعن تحركاته.. فعلم أن من عادته، أن يخرج هو وبعض رجاله صباح كل يوم، من أيام إقامتهم في نعجان، يطوفون في بساتين الدلم وزروعها، يرعون إبلهم، ويقطعون النخيل.. فأراد أن يكمن له ولأنصاره وسط النخيل

---

(١٩٠) فؤاد حمزة - المصدر السابق - ص ٢٦.

فجر اليوم التالي.. لكن ابن رشيد عندما أحس بوجود عبدالعزيز في الدلم، لم يخرج كعادته في الصباح الباكر إلى البساتين، لا هو ولا أحد من أتباعه.. وإنما خرجوا إليها متأخرين، وليس كعادتهم مبكرين.. فبادر عبدالعزيز إليهم بقسم من جيشه... وكانت المواجهة الأولى بين الخصمين خارج الدلم.. ووسط نخيلها.. وتلاحقت النجدات من الدلم لعبدالعزيز، ومن نعجان لابن رشيد، وكان لقاء حاميا وعنيفا.. فاقت حرارته حرارة الشمس المتوهجة يومها.. واستمر من الظهر حتى غروب الشمس.. حين أسدل الليل بظلمته، ستارا بين الفريقين، فتقهقر ابن رشيد إلى معسكره في نعجان، وحاول عبدالعزيز اللحاق به، لكن ذخيرته كانت قد نفدت، فلم يستطع متابعة الهجوم والزحف إليه في نعجان ..فعاد أدراجه إلى الدلم، وأرسل إلى الحوطة من يأتي له بذخيرة.. فقد كانت الحوطة بمثابة مركز تموين له.. وفي آخر الليل إذا بمدافع ابن رشيد تنطلق نحو الدلم.. وتحفز عبدالعزيز للإيقاع به عند اقترابه من نخيل الدلم.. لكنها كانت مناورة من ابن رشيد لتغطية انسحابه من نعجان في ذلك الوقت إلى بلدة السلمية، فعند الفجر أقبل رجال الاستطلاع يحملون إلى عبدالعزيز أن ابن رشيد ترك مواقعه في نعجان، وذهب إلى السلمية، التي تبعد عن الدلم بمسيرة ست ساعات تقريبا.. في الشمال الشرقي، فانطلق عبدالعزيز خلفه بكل جموعه؛ لكن تحركه كان بطيئا؛ نظرا لقلة ما لديه من الفرسان.. وما إن قرب ابن رشيد من السلمية، محاولا دخولها، حتى خرجت عليه القوة التي كانت تحت قيادة ابن عفيصان، وحالت بينه وبين دخولها.. فحط رحاله خارجها في محاولة منه لحصارها، ثم ما لبث أن شعر بقوات عبدالعزيز تلاحقه، واشتبك معها في قتال مروع.. ثم اتخذ

الليل ستاراً لانسحابه شمالاً.. وقد انتشر في جنوده مرض وبائي.. مات بسببه الكثير من جنوده، مما عجل في انسحابه شمالاً إلى الحفر[١٩١]

وتظهر من خلال هذه المعركة بعض الملامح الأساسية لأسلوب كل من الفارسين في حلبة الصراع، والتي دامت بينهما بشكل متتابع، وفي معارك متعددة، حتى انتهت بالضربة القاضية ليلة ١٨ صفر سنة ١٣٢٤هـ (١٤/٤/١٩٠٦م) حين قتل ابن رشيد في معركة روضة مهنا»، كما ظهرت من خلال هذه المعركة أيضاً النتائج التالية:

- البراعة في استعمال أسلوب بث الإشاعات، وتسريب معلومات خاطئة للخصم.. كي يبني عليها تصورات وخططاً تؤدي إلى الفشل والانهيار..

- البراعة في التمويه والخداع وسحب الخصم إلى مكان، أو موقع ملائم، بحيث تتوافر فيه عوامل التأثير على تقييد حركة الخصم، إضافة إلى التأثير المعنوي على نفسيته.

- سرعة الحركة، ومفاجأة الخصم من حيث لا يتوقع، سواء من حيث المكان الذي لا يتوقع الهجوم منه، أو من حيث الزمان الذي لا يتوقع الهجوم فيه..

- مع رجحان كفة ابن رشيد من حيث العدد والعتاد، قياساً إلى ما لدى عبدالعزيز.. إلا أن عبدالعزيز استطاع تعويض ذلك النقص، بسرعة

---

(١٩١) انظر تفاصيل ذلك كله في - فؤاد حمزة - المصدر السابق ص ٢٥، ٢٦، والزركلي- المصدر السابق - ص ١٢٦، ص ١٢٧، والريحاني - المصدر السابق - ص ١٣٢. وسعود بن هذلول - المصدر السابق- ص ٧٦.

الحركة، والمفاجأة، اللتين أربكتا قوات ابن رشيد، فلم تستطع التغلب، أو حتى الصمود، رغم رجحان كفتها عدداً وعتاداً..

- إن ابن رشيد - مع ما هو معروف عنه من شجاعة وسمعة عسكرية عالية بين القبائل العربية - قد فوجىء بأسلوب جديد في المعارك، لم يعهده من قبل، يعتمد على التمويه، والمفاجأة، وسرعة الحركة الميدانية.. فكان تأثير ذلك بالغاً على نفوس قواته، فلم تستطع مجاراة هذا الأسلوب.. وكانت النتيجة عدم الصمود ثم الانسحاب..

- إن انتصار عبدالعزيز بن عبدالرحمن، على عبدالعزيز بن متعب الرشيد، معناها تفوق شجاعة ابن سعود على شجاعة ابن رشيد.. التي كانت معروفة من قبل لدى القبائل، وقد شاع ذلك بين القبائل، وجعل المترددين منهم يندفعون إلى جانب عبدالعزيز بن عبدالرحمن، ولسان حالهم يقول إن شجاعته فاقت شجاعة الشجعان.

- إنه كان من نتيجة هذه المعركة تأكيد ولاء منطقة جنوب الرياض، وشرقها، لعبد العزيز بن عبدالرحمن..

- إنه بدأ يتجه إلى منطقة القصيم، وبلدان سدير والوشم، التي بدأت تفتح له ذراعيها..

- إنها أعطت مؤشرات لرجحان كفة عبدالعزيز، على ابن رشيد، منذ البداية؛ مما جعل بعض الدول التي لها اهتمامات بالمنطقة، كبريطانيا، وألمانيا، وروسيا تضع عبدالعزيز في دائرة اهتماماتها، وحاولت بعد ذلك عقد صداقات معه.. غير أنه رفض تلك الصداقات، فيما عدا صداقة بريطانيا.. وإلى حدّ معيّن..

صدى استرداد الرياض على الصعيد الدولي

هناك مبادىء تكاد تكون معروفة في مجال العلاقات الدولية.. ذلك أن الدبلوماسية السياسية لأية دولة، يقع عليها عبء كبير فيما تقوم به من تغطية لأعمالها، التي يكون لها تأثير دولي، أو تترتب عليها نتائج تؤثر على غيرها من الدول.. عندئذ يسارع جهازها السياسي بالتحرك دوليا، لتلافي رد الفعل أو التخفيف من آثاره.. وذلك بشرح وجهة نظرها فيما أقدمت عليه من فعل، مبينة الأسباب، والدواعي، والمبررات النظامية أو القانونية لذلك، وبمقدار نجاح تلك الدبلوماسية، وبراعتها في العرض، وسرد الحجج، والإقناع، يكون أثر رد الفعل، لدى الدول المعنية، بالقبول أو الرفض.. وما يترتب على الرفض من اتخاذ موقف مضاد، واتخاذ الوسائل الكفيلة بالرد على هذا العمل، ووأده في مهده.. ومحو أثره..

وحين نمعن النظر في حركة الملك عبدالعزيز، حين خرج من الكويت، واسترد الرياض، نجد أنها وقعت في ظل رسوخ تلك المبادىء في مجال العلاقات الدولية؛ حيث ترتبط الدول بعضها ببعض بمعاهدات، واتفاقيات، ونظم دولية، وما يصاحب هذا من أطماع وسيطرة، من بعض الدول على البعض الآخر.. والمكان الذي وقع فيه هذا الفعل - أعني الرياض.. ومنطقة نجد بشكل عام - لم يكن معزولا عن العالم.. حتى لا يكون له صدى، أو أثر لرد الفعل على الصعيد الدولي، حتى لايقال إن عبدالعزيز فعل ما فعله في غفلة من الزمن.. أو بعيدا عن أنظار المجتمع الدولي.. فالحقيقة المؤكدة بالوثائق.. تقول: إن عبدالعزيز فعل ما فعله - منذ استرداده للرياض، فيما عدا مرحلة زحفه إليها - على مرأى من العالم، وفي وقت كان الصراع فيه محتدما، ويكاد يكون ملتهبا بين الدول ذات الأطماع في المنطقة.. بين الدولة العثمانية التي كانت لها الهيمنة الاسمية على الأقطار العربية.. وبين بريطانيا التي تمتلك السيطرة في الخليج ومعظم شواطئه.. وبين ألمانيا وروسيا اللتين

تحاولان إيجاد موضع قدم لهما في المنطقة على الوجه الذي أوضحنا في الفصل الأول.. وصحيح أن منطقة نجد كانت وقتها لا تغري أياً منهم على اقتحام جبالها وسهولها.. لكنها كانت تقع تحت أعين كل منهم.. وبصره.. مخافة أن يمتد نفوذ حاكمها أياً كان إلى شاطىء الخليج..

وكما برع عبدالعزيز في الميدان العسكري، فقد برع أيضاً في المجال السياسي.. وهو موضوع يستحق أن يُفرد له بحث خاص.. ويكفي هنا أن نقول إن دليل براعته السياسية أنه لفت إليه أنظار الدول من اللحظات الأولى، فظلوا يراقبونه، وتوقعوا رجحان كفته.. فأقبل مندوبوهم، وحاولوا كسب صداقته.. وكانت النتيجة أنه أخذ منهم ما أراد، ولم يعطهم شيئاً.. أو بالأحرى لم يعطهم مقابل ما أخذ سوى الصداقة.. وجنب بلاده ماوقعت فيه معظم الشعوب العربية التي وقعت تحت وطأة الاستعمار!!..

وبتمعن أيضاً نجد أنه منذ اللحظات الأولى، التي واكبت تحرك عبدالعزيز من الكويت، لاسترداد الرياض.. وتوطيد سلطانه في منطقة جنوب الرياض، ثم شمالها فيما بعد، قد تهيأت لعبدالعزيز عملية تشبه، إلى حد كبير، نشاط الدبلوماسية السياسية المعروفة في وقتنا الحاضر، ببراعة أيضاً ولباقة، ممثلة في كل من الشيخ مبارك حاكم الكويت، والإمام عبدالرحمن الفيصل، قبل عودته للرياض للوقوف بجوار ابنه عبدالعزيز..

وتعالوا بنا نرى أثر هذه العملية على الصعيد الدولي، خلال اللحظات الأولى:

كانت بريطانيا: وبخاصة بعد أن عقدت اتفاقية مع مبارك في رمضان سنة ١٣١٦هـ، (يناير ١٨٩٩م) حريصة على إبعاد مبارك عن النزاعات الداخلية في نجد، أو المشاركة في أي عمل يعطي الفرصة للعثمانيين، لتقوية نفوذهم في المنطقة، وكثيراً ما كانت تنصحه بعدم التهور، والاشتباك مع ابن رشيد، لا

سيما بعد موقعة الصريف.. ويبدو أنها كانت تراقب حركات عبدالعزيز منذ البداية؛ لذا طلب السفير البريطاني في استانبول من القنصل البريطاني في البصرة، بتاريخ ١٧ شوال سنة ١٣١٩هـ (٢٧ يناير ١٩٠٢م) أن يحمل تحذيراً إلى مبارك؛ لعدم السماح لأنصاره، أو تشجيعهم على غزو أراضي ابن رشيد[١٩٢] .. وربما يكون السفير البريطاني قد تلقى توضيحات من استانبول على تشجيع مبارك لعبدالعزيز.. في تحركاته.. خلال الفترة التي كان عبدالعزيز يتظاهر فيها بأعمال الغزو فيما بين الكويت ويبرين.

عندما تم استرداد الرياض، ذهب ناصر بن سعود إلى الكويت مبشراً، فوصلها في ١٩ شوال، (٢٩ يناير) أي بعد أربعة عشر يوماً.. ومن المؤكد أن البشير حكى لهما عن كيفية استرداد الرياض، وقد أشيع ذلك في الكويت.. وتلقفته الأعين التي كانت ترقب وترصد الأحداث في المنطقة، وكان أسرعها في ذلك العيون البريطانية، لذا نجد برقية تخرج على جناح السرعة، مُرسلَة من القبطان بلهام قائد إحدى السفن البريطانية، الراسية بالقرب من شاطئ الكويت، إلى رئيسه الأدميرال باسانجو بتاريخ ٣١ يناير سنة ١٩٠٢م، يفيده فيها بخبر استيلاء عبدالعزيز على الرياض، وأنه حصل خلال ذلك على مائتي بندقية، وبعض الذخيرة[١٩٣] وغالب الظن أن هذه البرقية، تعتبر أول برقية رسمية بريطانية تحمل نبأ استرداد الرياض، للمسئولين البريطانيين في منطقة الخليج.. لأنها أرسلت ثالث يوم من وصول البشير إلى الكويت.. وعقب ذلك ازداد اهتمام بريطانيا بتتبع أخبار عبدالعزيز، ونشط موظفوها ومندوبوها في المنطقة على رفع تقارير دورية

---

(١٩٢) خالد السعدون - المصدر السابق - ص ٧٦.

(١٩٣) خالد السعدون - المصدر السابق- ص ٧٥، استناداً إلى تقارير الكولونيل بدويل الذي أورد نص تلك البرقية، ضمن تقاريره.

لرؤسائهم عن تحركات عبدالعزيز وأخباره.. ومن ذلك تقرير سري، مفصل، رفعه المعتمد السياسي في الخليج إلى حكومة الهند بتاريخ ٢ مارس سنة ١٩٠٢م ١٣١٩/١١/٢٢هـ. أي بعد شهر ونصف تقريبا من استرداد الرياض.. يقول في بدايته: أتشرف بأن أقدم ترجمة لرواية مثيرة باللغة العربية، عن الاستيلاء على الرياض، الذي قام به عبدالعزيز بن سعود أخيرا، وقد أرسلت لي هذه الخلاصة من مساعد الوكيل السياسي في البحرين(١٩٤)، ومع أن التقرير مفصل، وبه بعض المعلومات التي وردت عن كيفية الاستيلاء على المصمك! إلا أن به أخطاء، ومعلومات غير دقيقة نوعا ما، وربما يكون قد جاء ذلك الخطأ نتيجة للتسرع في جمع المعلومات، واستيفائها من مصادر غير دقيقة، أو مما كان يتردد على ألسنة الناس، ويتناقلونه؛ لكنه يوحي بمدى اهتمام بريطانيا بجمع أي معلومات عن تحركات عبدالعزيز، وتتبع أخباره، وتزايد الاهتمام به يوما بعد يوم.

وعند وصول الجنرال إلى الكويت تحرك مبارك، لإبلاغ الدولة العثمانية، فأرسل في ١٣ ذي القعدة سنة ١٣١٩هـ (٢٠ فبراير١٩٠٢م) خطابا إلى والي البصرة، يخبره فيه بنبأ استيلاء عبدالعزيز على الرياض، وأنه سيحكمها باسم السلطان وطلب من والي البصرة، إبلاغ ذلك للباب العالي في استانبول(١٩٥) ومن المؤكد أن هذا التصريح الصادر عن مبارك، لم يستشر فيه عبدالعزيز، لكنه رأى أن يستفيد من هذه الأحداث لخدمة مواجهته مع ابن رشيد، لا سيما وأن ابن رشيد من جانبه يحاول السعي بكل السبل لدى الدولة العثمانية؛ لكي تمونه بالسلاح والمال؛ للوقوف في وجه مبارك، وإخماد

---

(١٩٤) تقرير سري من المقدم كمبول Kemball المعتمد السياسي بالخليج إلى حكومة الهند، برقم ١٢٢.

(١٩٥) الرشيد - المصدر السابق - ص ١٧٤.

حركة عبدالعزيز، موهماً إياها أن حركة عبدالعزيز، إنما هي من فعل مبارك وبريطانيا وذلك كوسيلة لحثها على مساعدته.. بينما الحقيقة أن مبارك وبريطانيا[١٩٦] ليس لهما مسبقاً أي دخل فيما فعله عبدالعزيز، وأنهما فوجئا بنجاحه في استرداد الرياض.

ثم تابع الإمام عبدالرحمن الاتصال بالدولة العثمانية من خلال الخطاب الذي بعثه إلى السيد رجب النقيب، نقيب أشراف البصرة، والذي كانت تربطه به صداقات قديمة، فعندما أزمع الإمام عبدالرحمن العودة للرياض من الكويت، كتب خطاباً لرجب النقيب في ٥ صفر ١٣٢٠هـ يشرح له فيه الموقف، وربما كان هدفه من ذلك، أن يكون رجب النقيب كاللسان له عند الحكومة العثمانية.. ومما تضمنه الخطاب قوله: قبل هذا أرسلنا لكم كتاباً، شرحنا فيه أحوالنا وقت الآباء والأجداد، وشرحنا فيه ما آل إليه أمر أهل نجد وقبائلها، من تعديات ابن رشيد.. إلخ[١٩٧]...

ثم أرسل خطاباً آخر إلى المقيم السياسي في الخليج، يخبره فيه بخروجه من الكويت، والعودة للرياض، وأنه يأمل أن تزوده الحكومة البريطانية بعونها وتأييدها.. وأفاده بأن معتمد الروس قد عرض عليه المساعدة لكنه رفضها[١٩٨] ومعروف أن روسيا حتى ذاك الوقت لم تكن قد تحولت إلى دولة ماركسية، شيوعية.. وكانت تسعى لعقد صداقات في المنطقة، لكن الإمام عبدالرحمن رفض صداقتها ملوحاً للمقيم السياسي بتفضيل صداقة بريطانيا وتأييدها على صداقة روسيا.

---

(١٩٦) ج.ج. لوريمر - المصدر السابق - ج٣ ص ١٧٠٠.

(١٩٧) الرشيد - المصدر السابق - ص ١٧٩، وخزعل - المصدر السابق - ج٢، ص ١٧٨.

(١٩٨) الرشيد - المصدر السابق - ص ١٧٩.

ولا شك أن تلك المكاتبات لا تضير من شأن الإمام.. وإنما تدل على حكمته وحصافة رأيه.. فموقف عبدالعزيز، بمقاييس السياسة في العصر الراهن، كان في أشد الحاجة لطمأنة الدول ذات النفوذ في المنطقة.. حتى لا تسارع إحداها باتخاذ موقف، يكون له تأثير على عبدالعزيز قبل توطيد أقدامه، وبخاصة في الشهور الأولى، والحاضر المشاهد على الصعيد الدولي يؤكد بعد هذه النظرة.. وحكمة الإمام في ذلك.. فكثيرا ما نرى إحدى الدول تلجأ إلى مجموعة من الدول، أو إلى هيئة الأمم المتحدة مثلا.. لطرح قضية ما. بغرض كسب تأييدها وعونها، والوقوف بجانبها في أي نزاع مع غيرها من الدول..

وما أشبه نمو الدول وازدهارها، بنمو الإنسان واشتداد عوده.. فحين يكون طفلا تشتد حاجته لمن يساعده على الوقوف بعد الحبو.. ثم يأخذ جسمه في النمو، حتى يكون ندا لغيره..

ومنذ ذلك الوقت دخل عبدالعزيز ميدان السياسة أيضا، ومارس ألوانها، على الصعيد العربي والعالمي.. وكان بارعا بمقدار براعته في الميدان الحربي.. وهذا يحتاج لبحث آخر في هذا المجال. ندعو الله بالتوفيق لمن يتصدى له..

وأخيرا أرجو أن أكون قد وفقت في دراسة وتحليل موضوع البحث، وأضفت إليه الجديد، فإن كان قد أخطأني التوفيق فإني ألتمس العذر.. كل العذر.. لديك أيها القارىء الكريم. فإن أصبت فهذا من فضل الله وتوفيقه فله سبحانه الحمد والشكر.

فهرس الأعلام

فهرس الأسئلة

المراجع

الوثائق:

رجع الباحث إلى مجموعة من الوثائق التاريخية والروايات الشفوية المحفوظة لدى دارة الملك عبدالعزيز.

الكتب المطبوعة

- الأحسائي، محمد بن عبدالله بن عبدالمحسن ال عبدالقادر. **تحفة المستفيد بتاريخ الإحساء في القديم والجديد**، الرياض ١٣٧٩هـ/١٩٦٠م.
- آرمسترنج ،هـ، س،. **ابن سعود عاهل الجزيرة العربية**، ترجمة دارة الملك عبدالعزيز، لم ينشر بعد.
- الوشمي، أحمد بن مساعد. **الرياض مدينة وسكانا**، كيف كانت وكيف عاشوا، الرياض ١٤٠٦هـ.
- أنيس، محمد. **الدولة العثمانية والشرق العربي**، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية.
- بانيكار،ك، م. **آسيا والسيطرة الغربية**، ترجمة: عبدالعزيز جاويد، مراجعة: أحمد خاكي، القاهرة ١٩٦٢م.
- بنوا ميشان. **عبدالعزيز آل سعود، سيرة بطل ومولد مملكة**، ترجمة عبدالفتاح ياسين، دار الكاتب العربي، بيروت ١٩٦٥م.
- جارشلي، إسماعيل حقي أوزون. **امراء مكة في العهد العثماني**، ترجمة د. خليل علي مراد، البصرة ١٩٨٥م.
- الجاسر، حمد. **مدينة الرياض عبر أطوار التاريخ**، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الطبعة الأولى، الرياض ١٣٨٦هـ.
- حراز، السيد رجب. **أفريقية الشرقية والاستعمار الأوروبي**، القاهرة.
- حسون، علي. **تاريخ الدولة العثمانية**، القاهرة.
- الحصري، ساطع. **البلاد العربية والدولة العثمانية**، القاهرة ١٩٥٧م.

- حمزة، فؤاد. **البلاد العربية السعودية**، الرياض، الطبعة الثانية، ١٣٨٨هـ.
- خزعل، حسين خلف. **تاريخ الكويت السياسي**، بيروت ١٩٦٥م.
- ابن خلدون، عبدالرحمن. **المقدمة**، القاهرة، المطبعة الأميرية.
- ابن خميس، عبدالله بن محمد. **معجم اليمامة**، الرياض، الطبعة الأولى ١٣٩٨هـ.
- الدسوقي، محمد كمال. **الدولة العثمانية والمسألة الشرقية**، القاهرة ١٩٧٦م.
- الرافعي، عبدالرحمن. **مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال**، القاهرة ١٩٦٦م.
- الرشيد، عبدالعزيز. **تاريخ الكويت**، بيروت ١٩٧١م.
- رضا، محي الدين. **رحلتي في الحجاز**، القاهرة ١٩٣٦.
- الريحاني، أمين. **نجد وملحقاته**، أو سيرة عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل آل سعود ملك الحجاز ونجد وملحقاتها. منشورات الفاخرية، الرياض ١٩٨١م.
- الزامل، عبدالله علي. **أصدق البنود في تاريخ عبدالعزيز آل سعود**، بيروت ١٣٩٢هـ.
- الزركلي، خير الدين. **شبه الجزيرة في عهد الملك عبدالعزيز**، بيروت ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م. **الوجيز في سيرة الملك عبدالعزيز**، بيروت. الأعلام، بيروت ١٩٦٩م.
- آل سعود (الأميرة) موضى بنت منصور. **الملك عبدالعزيز ومؤتمر الكويت ١٣٤٣هـ**- الرياض، تهامة ١٤٠٢هـ.
- السعدون، خالد حمود. **العلاقات بين نجد والكويت في الفترة من ١٣١٩هـ - ١٣٤١هـ**، دارة الملك عبدالعزيز، الرياض ١٤٠٣هـ.
- سعيد، أمين. **تاريخ الدولة السعودية**، دارة الملك عبدالعزيز، الرياض ١٣٩٧هـ.

- الشريف، عبدالرحمن. **مدينة الرياض**، أسهمت دارة الملك عبدالعزيز في طباعته، لم يذكر تاريخ الطباعة.
- الشناوي، عبدالعزيز محمد. **الدولة العثمانية دولة مفترى عليها**. القاهرة ١٩٨٠م.
- العتيبي، إبراهيم عواض. **الأمن في عهد الملك عبدالعزيز**، رسالة ماجستير من جامعة الملك سعود، لم تنشر بعد.
- عسة، أحمد. **معجزة فوق الرمال**. بيروت ١٣٩١هـ.
- عطار، أحمد عبدالغفور. **صقر الجزيرة**، مكة المكرمة، الطبعة الخامسة، ١٣٩٩هـ.
- العقاد، صلاح. **التيارات السياسية في الخليج العربي**، القاهرة ١٩٦٥م.
- فتال، عبدالوهاب. **درب الانتصار**، بيروت ١٩٦٦م.
- فريد، محمد. **تاريخ الدولة العلية العثمانية**، بيروت ١٩٧٧م.
- فيلبي، عبدالله. **الذكرى العربية الذهبية**، ترجمة مصطفى كمال فايد، مكة المكرمة ١٣٧٢هـ.
- كشك، محمد جلال. **السعوديون والحل الإسلامي**، لندن، الطبعة الثالثة، ١٤٠٢هـ.
- لوريمر، ج، ج،. **دليل الخليج**، القسم التاريخي، ترجم وطبع على نفقة الشيخ خليفة بن حمد آل ثان - الدوحة ١٣٩٥هـ.
- المانع، محمد. **توحيد المملكة العربية السعودية**، ترجمة: الدكتور عبدالله الصالح العثيمين، الدمام، الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ.
- المعهد العربي لإنماء المدن. **الرياض مدينة المستقبل**، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ.
- المنصور، عبدالعزيز محمد. **التطور السياسي لقطر في الفترة ما بين ١٨٦٨-١٩١٦م**، الكويت الطبعة الثانية، ١٤٠٠هـ.

- نوفل، سيد. **الخليج العربي**، أو الحدود الشرقية للوطن العربي، بيروت ١٩٦٩م.
- ابن هذلول (الأمير) سعود بن ناصر. **تاريخ ملوك آل سعود**، الرياض ١٣٨٠هـ.
- وهبة، حافظ. **خمسون عاما في جزيرة العرب**، الطبعة الرابعة، القاهرة ١٣٨١هـ/١٩٦١م.

الموسوعات:

- الموسوعة العربية العالمية، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع بالرياض.
- الموسوعة العربية الميسرة، إعداد مجموعة من المختصين والخبراء، بالقاهرة بيروت ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

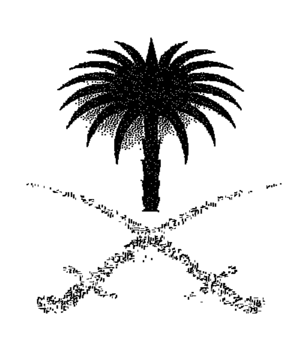
الدوريات:

- أم القرى، العدد ٩٧٠، السنة العشرون، ٢٨ رجب ١٣٦٢هـ، مكة المكرمة.
- صحيفة الرياض، العدد ٤٢٤٩، جمادى الأولى ١٣٩٣هـ، الرياض. مقالة للشيخ عبدالله بن خميس.
- صحيفة الجزيرة، العدد ٣٧٢١، ١٢ صفر ١٤٠٣هـ، مقالة للشيخ سعد بن عبدالعزيز الرويشد.
- صحيفة الشرق الأوسط، العدد ٦٨٩٩ بتاريخ ١٨ أكتوبر ١٩٩٧م الموافق ١٧ جمادى الآخرة ١٤١٨هـ مقالة للأستاذ عبدالرحمن بن سليمان الرويشد.
- «مجلة الدارة» العدد الرابع للسنة الثامنة، رجب ١٤٠٣هـ، افتتاحية للأستاذ محمد حسين زيدان.

المحتويات

الفصل الرابع

الإخراج و التنفيذ الطباعي
مؤسسة مرينا لخدمات الطباعة - الرياض - هاتف: ٤٧٦١٥٥١ - فاكس: ٤٧٣٠٧٦٧



هذا الكتاب

هذا العمل الذي نقدمه ليس
سرداً لتاريخ الملك عبدالعزيز، بقدر ما
هو دراسة وتحليل للأخبار والوقائع
والحوادث لفترة الإعداد و الاستعداد، ووضع
أول لبنة في هذا الصرح الشامخ، فهي تعطينا
ملامح واضحة لهذه العبقرية الفذة في وقت
مبكر، كانت على موعد مع فجر أول يوم
لاسترداد الرياض. ويتناول هذا الكتاب
دراسة الأوضاع السياسية ونشأة الملك
عبدالعزيز ومميزات شخصيته، والخطى
لاسترداد الرياض وصدى ذلك محلياً وعالمياً.

رقم الردمك: ٩-١٣-٦٩٣-٩٩٦٠
ISBN: 9960-693-13-9

